ورد وكهرمان

مختارات من القصة القصيرة النِّسائية العالمية

ورد وكهرمان (مختارات من القصة القصيرة النِّسائية العالمية)

أختارها وقدمها: أحمد رجب

الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر

هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

– اختارها وقدمها: أحمد رجب – ورد وكهرمان

– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢

١٦١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٠ – ٦ – ٨٦٢٨٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٠٣٨٤ / ٢٠٢٢

ورد وكهرمان

مختارات من القصة القصيرة النِّسائية العالمية

اختارها وقدمها

أحمد رجب

مقدمة

سواء استخدمنا مصطلح أدب نِسوي، أو أدب نِسائي، أو أدب الأنثى، أو أدب المرأة.. فهي كلها تعني مفهومًا واحدًا، وتُشير إلى نفس المدلول، فقد تعددت الأسماء والهدفُ واحدً؛ وهو الإشارة إلى نوعٍ من الأدب يكون فيه المحتوى أو المضمون مُخصَّصًا لطرح قضية المرأة والدفاع عنها وعن حقوقها؛ فيُعرِّفهُ البعض على إنه الأدب المرتبط بحركة نصرة وحُرية المرأة،وصراعها الطويل التاريخي لمساواتها بالرجل، بينما يعتبره البعض الآخر مُصطلحا يهدف إلى فَصْل أدب المرأة عن أدب الرجل، وهذا ما يرفضه بعض النُقَّاد؛ بل وبعض الأُدباء ومن بينهم كاتبات شهيرات، لأن الأدب إنسانيًا وليس من المُفترَض تجزئته وِفقًا لنوع الكاتب وجنسه، بينما يرى المدافعون عن المُصطلح أن المرأة يجب أن تتمتَّع بخصوصيتها في الكتابة ليظهر الفرق الواضح بين كتاباتها وكتابات الرجل؛ وعليه تتحدد القيمة الإبداعية للنص الأنثوي مُنفردًا.

وقد وافقَ بعض النُقَّاد على وضع تصنيفات للحركات الأدبية؛ لتيسير تحليل النصوص الأدبية، مثل تصنيف الأدب النِّسوي في مقابل الأدب الذكوري، رغم أن كلا مُبدعيه ذكرًا أو أنثى ينتمي للكيان الإنساني الذي ينبض بالانفعالات والتجارب، والفيصل فيه هو الموهبة.

وعلى سبيل العموم، فإن البعض يتهم مصطلح الأدب النِّسوي الذي شاع في الغرب بأنه ينطلق من نظرة عنصرية بحتة، لأنه يلغي كل جوانب

إبداع المرأة ويحصرها فقط في مُحيط الأنوثة، رغم أن هذه الأنوثة هي جزء أصيل من ذات المرأة تضفي عليها بعضًا من الخصوصية في الكتابة، ولكنها ليست كلها ذات المرأة المبدعة، فذات المرأة المبدعة مثل الأرض تنبت كل الزروع وأنواع الزهور وعطورها المختلفة والمتنوعة في جمالها الأخَّاذ.

وليس هناك عيبٌ في أن تبدع المرأة بنفس وحس وجداني أنثوي لأن ذلك يمثل خصوصية تتمتع فيها المرأة بخصوبة المشاعر وفقًا لفطرتها، بل إن نجاح الكاتبة في أن تُبدع نصًا بمذاق أنثوي فيَّاض بالدلالات والتجارب الإنسانية يضفي على تجربتها الأدبية صدقًا يمس القلوب والعقول معًا.

نعم هناك مواقف وقصص تكون فيها الكاتبة أقدر على التعبير عن المرأة، كما يكون المبدع الرجل أكثر قدرة على التعبير عن عالم الرجال غير أن القضايا الإنسانية واحدة يتفاعل بها الجنسان، وتظل لدى طرفي المعادلة بعض الخصوصيات، فبينما يبدو الرجل جريئًا في البوح عن العاطفة والحب، نجد البوح لدى المرأة الشرقية يأخذ صيغًا غير مباشرة ويُغلِّفها العفة والخجل، لكنَّهما يكتبان معًا وبنفس القدر من الموهبة عن حاجات الإنسان فضاءات للحرية والعدل والرحمة.

لكن ينبغي ألَّا نخضع لأسر جمود المصطلحات، فهي مجرد أداة من أدوات الفهم والتواصل النقدي والمعرفي، بينما التجارب الإنسانية للكتَّاب رجالاً ونساءً تَفد من ينابيع الحياة المتجددة بمشكلاتها الثقافية والاجتماعية المتعددة؛ فليس من المتصوَّر أن نحصر إبداع المرأة في إطار جنسها الأنثوي في تمييز واضح يقلل من مشاركتها الفاعلة في تنوير المجتمعات، بينما تؤدي

هذه المرأة الكاتبة أدوار معرفية متنوعة ومتباينة المقاصد، تمامًا كتنوع وظائفها الكونية من طفلة تقرأ بعيونها سلام الملائكة، وكشابة يافعة تنطلق روحها بالأنوثة والعمل لإثبات ذاتها، وكزوجة تخلص في إسعاد زوجها وكأم هي المربية والأستاذ الأول لابنها الذكر.

ويرى البعض أن تجربة المرأة تنجرف نحو هذا المفهوم الضيّق للأدب حين تتوقَّف تجربتها الأدبية على مُخاطبة الرجل بعواطف مُباشرة جيَّاشة، دون أن تنفتح بخيالها وتجربتها نحو الفضاء الإنساني الرَّحب، موجهةً كتاباتِها للقلبِ والعقلِ والرُّوح، مُتجرِّدةً من قيود الانحياز لنوعٍ على حساب الآخر؛ فتصنيف ما تُبدعه المرأة من نصوص تحت مُسمَّى الأدب النِّسائي قد يحد من مساحات إبداعها ويُحددها في أُطرٍ، ويُعيدها من انفتاحها الإنساني الخالص إلى حريم سُلطان الأدب الذي يُهيمن عليه المبدعون الرجال.

وبرغم الخلاف على المصطلح، لا يمكن أن يختلف على وجود كتابات عبَّرت عن النِّساء من أروع ما يكون، سواء كان كاتبها ذكر أم أنثى، فهو خلاف سطحي، ولكن سوف يكون من الأفضل إذا كان الخلاف على المنظور الفكري للمرأة والمحاولة للتعبير عنها والسمو بها بأفضل ما يمكن من الكتابات.

هذا ويعتبر الأدب النِّسوي أحد المصطلحات الجدلية التي أخذت حيز كبير من الاهتمام منذ فترة التسعينات، خصوصًا بعد أن انتشر استعمالهُ كثيرًا، بعد أن ظهرت مجموعة من الأقلام النسائية الواعدة في مختلف الدول العربية، غير أن هذا المصطلح لم يتمكن من توفيق مختلف وجهات النظر

حياله خصوصًا من قبل الكاتبات أنفسهن، كما أن النقاد الأدبيين حتى الآن لم يتفقوا حول ما إذا كانت هذه التسمية بالفعل تعكس الواقع الأدبي للنساء أم أنها تحجم من تلك التجربة، إذ أن بعض النُقَّاد يرون أن تصنيف كل ما تكتبه المرأة تحت ما يسمى بالأدب النسائي لا يُعد صحيحًا خصوصًا وأن بعض الأصوات النِّسوية لا تتحدث لا من قريب ولا من بعيد عن قضايا وهموم المرأة؛ بل ينحصر سردها الأدبي في كثير من الأحيان على إسقاطات شخصية حول مواضيع مختلفة؛ ولذا لا ينبغي أن تُصنَّف كل تلك الكتابات بكتابات نسوية إلا إذا ناقشت بشكل رئيسي في سردها الأدبي القضايا التي تتعلق بواقع وهموم المرأة في مختلف المجالات.

من جهة أخرى يرى بعض النُقَّاد أنه ينبغي أن يصنَّف كل ما تكتبه المرأة بالأدب النسوي؛ لأن المرأة بشكل عام تميل إلى تغليب المشاعر والتركيز على التفاصيل أثناء تجربتها الأدبية، وبهذا تكون التجربة الكتابية متشابهة بين مختلف الأقلام.

ما يناقض هذا الجانب من النقد هو أن الأسلوب الأدبي يختلف من كاتب لآخر، ويوجد كُتَّاب يستخدمون بشكل مكثف جانب المشاعر والتفاصيل في أعمالهم الأدبية، وبهذا لا يمكن أن يُحصر هذا النوع من الكتابة بالصوت النسائي، خصوصًا إذا علمنا أن هناك كاتِبات تخصَّصن في مجالات بعيدة عن قضايا المرأة تمامًا كالكاتبة المُتخصِّصة في الأدب البوليسي "أجاثا كريستي"، وبهذا يبدو أن تصنيف الأدب النسوي كأدب يرتبط بقضايا وهموم المرأة هو الأقرب للمنطق.

غير أن هذا الجدل نظري بحت، وقد اختلفت الكاتبات حوله، فمنهن من اتخذت موقف الرفض التام لمثل هذا التصنيف باعتباره تمييز يقصد منه التقليل من قيمة الإبداع الذي تنتجه المرأة، وذلك بربطه بخصائص فسيولوجية لا علاقةَ لها بالأدب والإبداع لا من قريب ولا من بعيد، ويتبنَّين فكرة أن تُرفض هذه التسمية تمامًا؛ لأنه لا يتم تصنيف بقية الأنواع من الأدب كالأدب الذكوري مثلًا أو أدب العميان مثلًا أو أدب ذوي الاحتياجات الخاصة وجهة النظر الأخرى تجاه تلك الآراء النقدية اتخذت موقفًا وسطيًا، إذ أنها لم ترفض استخدام المصطلح تمامًا، ورأت فيه وسيلة جيدة للتعريف بالإبداع والأدب الذي يتحدث عن واقع المرأة، باعتبار هذه الخطوة مفيدة للتركيز على الإشكاليات التي تواجه واقع المرأة، والتي يمكن حلها من خلال بناء الوعي المجتمعي باستخدام الأدب، غير أن أصحاب هذا الرأي يرفضون ربط هذا الأدب بالخصائص الفسيولوجية للمرأة، لأن بعض الكُتَّاب يكتبون بنفس الطريقة التي تكتب بها المرأة، كما أن بعض الكُتَّاب يكتب بشكل فعَّال حول قضايا المرأة والدفاع عن حقوقها.

أما وجهة النظر الثالثة تجاه هذا المصطلح فهي تؤيده تمامًا باعتباره أحد الوسائل التي ساهمت في تحرير المرأة الغربية من التقاليد والقيود المجتمعية التي أعاقتها لقرون، وأصحاب هذا الرأي يميلون بشكل كبير إلى إعادة استنساخ تجربة الحركة النسوية الغربية والتي استخدمت الأدب بشكلٍ رئيسيٍ لإعادة تشكيل وعي المرأة تجاه قضاياها، وإعادة تشكيل وعي المجتمع تجاه دور المرأة في مختلف الجوانب.

وبشكل عام، أثَّر تباين وجهات النظر حول هذا المفهوم بشكل كبير في

واقع المرأة، إذ أن النقاد حاليًا يُركِّزون بشكلٍ كبيرٍ على الجوانب الفنية في قراءة الأدب الذي تكتبه المرأة، وهذا يدفع كثير من الكَاتبات إلى التركيز على الجوانب الفنية على حساب الجانب الموضوعي أو المحتوى القيمي الذي يجب أن يتضمنه العمل الأدبي بصفته وسيلة لمعالجة قضايا المجتمع.

ونحن يعنينا من هذا الجدل تأثيره على الإبداع، وخاصة على كتابة المرأة للقصة والرواية، ولا نرى في إقدام المرأة على ممارسة فنون القص شيئًا غريبًا، فتراثنا القصصي منذ بداياته يعتمد على قاصَّة أو راوية امرأة، وهي شهرزاد الراوية لحكايات ألف ليلة وليلة، ولشهرزاد حفيدات كثيرات في كل الأمم يكتبن بكل اللغات، وقد وقع اختيارنا على عدد من القصص القصيرة لبعض هؤلاء الحفيدات، نقدمها مترجمة إلى القارئ العربي، مُتمنّين له قراءة مفيدة ممتعة.

أحمد رجب

الليل

بقلم / أليس مونرو[*]

وأنا صغيرة كنت أعتقد أنه لم توجد قطُّ عمليةُ مخاضٍ أو انفجارٍ في الزائدة الدودية أو أي عمليةٍ جراحية خطيرة من أي نوع، إلا كان سببها هبوب العواصف الثلجية؛ فتكون الشوارعُ مغلقةً ولا يمكن إنقاذ أي سيارة تغرس عجلاتها في الثلوج، وكان ينبغي ربْطُ بعضِ الخيول بالسيارة حتى يمكن أن تشقَّ طريقَها عبر المدينة للوصول إلى المستشفى، ومن حُسْن الحظ أنه كان لا يزال هناك بعض الخيول؛ لأنه وفْقَ التطور الطبيعي للأمور كان سيتم التخلِّي عن استخدام الخيول، لكنَّ الحربَ وترشيدَ استهلاك البنزين غيَّرَ كلَّ ذلك، على الأقل في ذلك الوقت.

لذلك، حينما استشعرت ألمًا شديدًا في جانبي، كان يجب أنْ يحدث في الساعة الحادية عشرة ليلًا وأنْ تهبَّ عاصفةٌ ثلجية، وبما أننا لم نكن حينَها نربِّي أيَّ خيول، كان ينبغي أن نستدعي مجموعةَ الخيول التي كان يمتلكها

---

[*] أليس مونرو: كاتبة كندية، (ولدت في ١٠ يوليو عام ١٩٣١) حائزة على جائزة نوبل في الأدب في أكتوبر ٢٠١٣؛ اعتبرت لجنة منح الجائزة أن القصص القصيرة التي تؤلفها الكاتبة هي من بين الأفضل في العالم حالياً. وُصِفتْ أعمالُها بأنها أحدثتْ ثورةً في بِنْية القصة القصيرة؛ سبق لها الحصول على جائزة البوكر للآداب في عام ٢٠٠٩، وعلى مدار حياتها الأدبية الحافلة، حازَتْ مونرو العديدَ من الجوائز؛ وتتميَّز قصص مونرو بأنها تستكشف الجوانبَ الإنسانية المعقَّدة بأسلوبٍ بسيط، وللكاتبة ما يزيد على ٢٠ مجموعة قصصية، ومن أشهر قصصها: "حلم أمي" و"أقمار المشتري"، و"العاشق المسافر" و"الحياة العزيزة".. ومنها اخترنا هذه القصة.

جيراننا لاصطحابي إلى المستشفى؛ وهي رحلة لم تكن تتجاوز الميلَ ونصف الميل، لكنها كانت مغامرةً على الرغم من ذلك،كان الطبيب في الانتظار، وقد استعدَّ لاستئصال زائدتي الدودية.

أعلم أن عملية الاستئصال هذه لا تزال تحدث، وأنها شيءٌ ضروري، بل إنَّني أعرف شخصًا مات لأنه لم يخضع لتلك العملية في الوقت المناسب، لكنْ كان ذلك نوعًا من الطقوس التي يجب أن يمرَّ بها الكثير من الأشخاص ممَّن هم في مثل عمري، ليس بأعدادٍ كبيرة على الإطلاق لكن ليس على نحوٍ غير متوقَّع جدًّا، وربما ليس على نحوٍ غير سعيد جدًّا بهذه الطريقة؛ لأنه كان يعني الحصولَ على إجازة من المدرسة، ووضعًا خاصًّا بعضَ الشيء يميِّزك ولو لفترة وجيزة، عن الآخرين باعتبارك شخصًا ضربك الموت بجناحه، وذلك في وقتٍ من حياتك يتراءَى لكَ فيه أنَّ هذا يمكن أن يكون شيئًا مُفرِحًا.

وهكذا بقيتُ في الفراش، دون زائدتي الدودية، لبضعة أيام في المستشفى أتطلَّع أثناءها عبر إحدى نوافذها إلى الثلوج وهي تتساقط على نحوٍ كئيبٍ عبر بعض الأشجار الدائمة الخضرة.

ثم عدتُ إلى المدرسة واستمتعتُ بإعفائي من أداء التمرينات البدنية لفترةٍ أطول من اللازم، وفي صباح أحد أيام السبت عندما كنتُ أنا وأمي نقف بمفردنا في المطبخ، أخبرَتْني أنهم استأصلوا زائدتي الدودية في المستشفى، كما كنتُ أعتقد تمامًا، لكنها لم تكن الشيءَ الوحيد الذي استأصلوه؛ لقد رأى الطبيب أنه من المناسب استئصالها، لكن الشيء الأهم الذي أثار قلقَه

هو وجود ورم؛ ورم قالت عنه أمي إنه كان في حجم بيضة ديك رومي، لكنها قالت إنه يجب عليَّ ألَّا أقلق لأنَّ الأمر قد انتهى الآن.

لم يطرأ قطُّ على ذهني وقتَها مرضُ السرطان، ولم تأتِ هي على ذِكْره مطلقًا، والطريقة الوحيدة التي يمكن أن أُفسِّر بها عدم قدرتنا على الحديث حول هذا الأمر؛ هي أنه أن ثمة ضبابية كانت تحيط بتلك الكلمة مثلما كانت هناك ضبابية عندما يأتي ذِكْر الجنس.

بل إن السرطان أسوأ حتى من الجنس؛ فالجنس شيء مقزِّز لكنْ يتخلَّله بعض المتعة، بالطبع، كنَّا نَعِي بوجود هذه المتعة بالرغم من أن أمهاتنا لم تكن تَعِي ذلك، بينما كلمة سرطان كانت تجعلك تتخيَّل كائنًا داكنَ اللون عَفِنًا ذا رائحة كريهة لن تنظر إليه حتى أثناء إبعادِك إيَّاه عن طريقك.

ولم يكن أمامي سوى أن أفترض أنه حميدٌ، أو أنهم تخلَّصوا منه ببراعةٍ لأنَّني ما زلتُ حيةً حتى الآن، وهكذا قليلًا ما كنتُ أفكِّر في هذا الأمر طوال حياتي، لدرجة أنه حينما يُطلَب مني ذِكْر العمليات التي خضعتُ لها، كنتُ تلقائيًّا أقول فقط: "الزائدة الدودية".

ربما دار ذلك الحوارُ الذي كان بيني وبين أمي في عطلات عيد الفصح عندما انتهَتْ كلُّ العواصف الثلجية، وذابَتْ كلُّ الجبال الجليدية، وفاضَتْ جداولُ المياه، وكان الصيفُ الشديد الحرارة على الأبواب؛ فطقسُنا لا يعرف المزاحَ أو الرحمةَ.

وفي أوائل شهر يونيو الحار، تخرَّجْتُ في المدرسة حيث حصلتُ على درجاتٍ جيدةٍ تعفيني من خوض الاختبارات النهائية؛ كانت حالتي الصحية

جيدةً، وكنتُ أؤدِّي بعضَ المهام المنزلية، وكنتُ أقرأ كتبًا كالمعتاد، ولم يكن ثمة أحدٌ يدري أن هناك شيئًا يؤثِّر عليَّ.

عليَّ الآن أن أصف ترتيبات النوم في الغرفة التي كنتُ أشغلها أنا وأختي؛ كانت غرفةٌ صغيرةً لا تتَّسِع لفراشين يُوضَعان جنبًا إلى جنب؛ لذا كان الحل هو فراشًا بطابقَيْن مزوَّدًا بسلمٍ كي يصل مَن ينام في الطابق العلوي إلى فراشه، وكان هذا الشخص هو أنا.

وحينما كنتُ أصغر سنًّا وأميل إلى مضايَقةِ الآخَرين، كنتُ أرفع جانب مرتبتي الرفيعة وأهدِّد بالبصق على وجه أختي الصغيرة التي كانت تستلقِي مغلوبةً على أمرها في الفراش السفلي؛ بالطبع لم تكن أختي كاثرين مغلوبةً على أمرها تمامًا؛ فقد كان بمقدورها أن تختبئ أسفلَ أغطيتها، لكنَّ الحيلةَ التي كنتُ أمارِسُها حينَها أنْ أظلَّ أراقِبُها حتى تشعر بالاختناق أو يدفعها فضولُها إلى أنْ تخرج من أسفل الأغطية، وفي تلك اللحظة أبصق عليها، أو أتظاهَر بأنني نجحتُ في البصق على وجهها، الأمر الذي يثير حنقها الشديد.

لا أدَّعِي أني كنتُ أُحْكِم سيطرتي عليها بالكامل، أو أن حياتنا كانت متشابِكةٌ على الدوام؛ فقد كان لها أصدقاؤها ولعبها الخاصان بها، وكانت تنزع في لعبها نحو تقليد الحياة المنزلية وليس الإثارة؛ فقد كانت تأخذ الدُّمَى للتمشيةِ في العربات الخاصة بها، أو كانت في بعض الأحيان تجعل القطط الصغيرة ترتدي بعض الملابس وتضعها في عربات الدُّمَى وتتمشَّى بها، وكانت القطط دائمًا ما تشعر باهتياجٍ شديدٍ وترغب في الفكاك منها.

كانت هناك أيضًا جلساتٌ لِلَّعب عندما يتقمَّص أحدهم دورَ المعلم

ويكون بإمكانه ضرْبُ الآخَرين على معصمهم، وجعلهم يتظاهرون بالبكاء عقابًا لهم على المخالفات والحماقات التي ارتكبوها.

في شهر يونيو، كما ذكرتُ من قبلِ، كنتُ قد أنهيتُ الدراسة وأصبحتُ أفعل ما يحلو لي، ولا أتذكَّر أنَّني كنتُ على هذا النحو في أي فترةٍ أخرى من فترات نشأتي؛ كنتُ أؤدِّي بعضَ المهام المنزلية، لكنْ لا بُد أنَّ أمي كانت بصحة جيدة وقتَها بحيث تقوم بمعظم هذه المهام، أو ربما كان لدينا ما يكفي من المال كي نوظِّف أمي خادمةً؛ أنا لا أتذكَّر على أي حال أنه كان عليَّ تولِّي أيٍّ من المهام التي تراكمَتْ لأؤدِّيها في فصول الصيف اللاحقة، حينما جاهدتُ طواعيةً كي أحافِظ على المظهر اللائق لمنزلنا.

يبدو أنَّ بيضة الديك الرومي الغامضة لابد أنها قد أثَّرَتْ عليَّ بشدةٍ بحيث كان من الممكن أن أمضي بعضًا من الوقت وأنا أتجوَّل في المنزل تائهةً وكأنَّني أحد الزائرين؛ لكنَّ هذا لم تنتج عنه مشاكلُ كبيرة، وما كان لأيٍّ من أفراد عائلتي نسيان ذلك إنْ حدث، كان الأمر كله داخليًّا، شعورًا بعدم النفع والغرابة؛ لكن الشعور بعدم النفع لم يكن دائمًا؛ فأنا أتذكَّر أني كنتُ أجلس القرفصاء لكي أهذِّب براعمَ الجزر كما ينبغي أن يفعل المرء في كل فصل ربيع حتى تنمو الجذور لتصل لحجمٍ مناسبٍ يسمح بتناولها.

لا بد أنني لم أكن أقوم بأيِّ مهامَّ منزليةٍ طوال اليوم، كما كان الأمر في فصول الصيف السابقة أو اللاحقة، ربما كان ذلك هو السبب وراء بداية معاناتي من مشاكل في النوم، في البداية بحسب اعتقادي كان ذلك يعني أن أبقى مستيقظةً ربما حتى منتصف الليل تقريبًا، وأتساءل إلى أيِّ مدى ظللتُ

مستيقظةً بينما بقيةُ أفراد المنزل غارقون في النوم،ربما كنتُ أقرأ وأشعر بالتعب بالطريقة المعتادة وأطفئ الأضواء وأنتظر، وما كان أحدٌ ينادي عليَّ في وقتٍ مبكر ليطلب مني أن أطفئ الأضواء وأخلد للنوم، ولأول مرةٍ على الإطلاق (ولا بُد أن هذا كان يدل أيضًا على وضعي الخاص) يتركونني أتَّخِذ قراري بشأن ذلك الأمر.

كان الأمر يستغرق فترةً لكي يتحوَّل المنزل من ضوء النهار ومن الأنوار الصناعية التي كانت تُضَاء في وقتٍ متأخِّر إلى وقت المساء كان المنزل يضحى مكانًا أكثر غرابةً يتلاشى فيه الأشخاص والأعمال التي تُملِي عليهم نوعَ حياتهم، وتتلاشى أيضًا استخداماتهم لكل شيءٍ حولَهم، وترى الأثاث وقد تقوقع على ذاته ولم يَعُدْ موجودًا لعدم وجودِ مَن يعبأ به.

قد تعتقد أن ذلك كان نوعًا من التحرُّر، ربما كان كذلك في البداية؛ إنها الحرية، الغرابة؛ لكن مع ازدياد عدم قدرتي على النوم واستمرار استيقاظي حتى حلول الفجر، أصبحتُ أكثر انزعاجًا بسبب ذلك، وبدأتُ في ترديد كلامٍ مسجوعٍ، ثم أشعارٍ حقيقيةٍ، في البداية كوسيلةٍ لمساعدتي في الغياب عن الوعي والنوم، لكن الأمر خرج عن سيطرتي بعد ذلك، وبَدَا أن هذا النشاط كان يسخر مني، كنتُ أسخر من ذاتي حيث تحوَّلَتِ الكلماتُ إلى عباراتٍ سخيفةٍ، إلى أسخف كلامٍ عشوائيٍّ.

لقد كنت شخصًا آخر، كنت أسمع الناس يردِّدون هذا بين الحين والآخَر، وذلك طوال حياتي ولم أفكِّر فيما يمكن أن يعنيه هذا.

مَن تظنين نفسك إذن؟ كنتُ أسمع ذلك أيضًا، لكنْ دون أن أربطه بأيِّ

نوعٍ من التهديد الحقيقي، بل كنتُ أعتبره مجرد نوعٍ من السخرية العادية، وفكرتُ ثانيةً.

وبحلول ذلك الوقت لم يكن النوم هو مبتغاي؛ كنتُ أعلم أن مجرد النوم ليس ممكنًا، بل ربما لم يكن مرغوبًا، كان هناك شيء يحاول السيطرة عليَّ، وكان من شأني أن أمنعه، وأيًّا ما كان كُنْه هذا الشيء، فقد كان يحاول أن يطلب مني القيام ببعض الأفعال، ليس لسببٍ معلومٍ على وجه التحديد، بل لمعرفة إنْ كانت تلك الأفعال ممكنةً أم لا، كان يخبرني أن الدوافع ليست ضروريةً، كان الشيء الضروري فقط هو أن أستسلم له، يا له من أمرٍ غريب! أن تفعل شيئًا، ليس بدافعِ الانتقام أو من أجل أيِّ سببٍ عادي، وإنما لمجرد أنه طرأ على ذهنك.

لقد فكرتُ في الأمر بالفعل، وكلما أزحتُه عن ذهني، زادَتْ ملاحقتُه لي، ليست ثمة رغبةٌ في الانتقام، أو شعورٌ بالضغينة؛ ليس هناك سببٌ، فقط هو شيءٌ أشْبَهُ بفكرة عميقة شريرة تميل لأنْ تكون نوعًا من التأمُّل أكثر من كونها رغبةً مُلحَّة، كان ينبغي عليَّ ألَّا أفكِّر حتى فيها، لكني فعلتُ؛ فكرة أنه يمكنني أن أخنق أختي الصغيرة التي كانت تغطُّ في النوم في الفراش الذي يوجد أسفل فراشي، والتي كنتُ أحبُّها أكثر من أي شخصٍ آخَر في هذا العالَمَ.

قد أفعل ذلك لكن ليس بدافع الغيرة، أو الشر، أو الغضب؛ بل بسبب ضربٍ من الجنون ربما يكون مستلقيًا بجانبي هنا في الظلام، لكنه ليس بجنون شديد أيضًا، إنما شيء يمكن أن تصفه بأنه مزعجٌ؛ اقتراحٌ كسول، مزعج،

نصفُ بليدٍ بَدَا أنه كان متواريًا منذ وقت طويل، ربما كان يقول: ولِمَ لا تفعلين ذلك، لِمَ لا تجرِّبين الأسوأ؟

الأسوأ! هنا في أكثر مكانٍ مألوف لنا؛ في الحجرة التي عشنا فيها حياتَنا كلها واعتقدنا أنها أكثرُ مكانٍ نشعر فيه بالأمان؛ قد أُقْدِم على فعله بلا سببٍ مفهوم لي أو لغيري سوى أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من القيام به.

الشيء الذي كان عليَّ فعله هو النهوض، والخروج من تلك الحجرة ومن ذلك المنزل، هبطتُ دَرَجات السلم دون أن أنظر على الإطلاق ولو لمرةٍ واحدة إلى المكان الذي كانت أختي تغطُّ فيه في النوم، ثم هبطتُ الدَّرَج بهدوءٍ، دون أن أُزعِج أحدًا، ومنه اتجهتُ نحوَ المطبخ حيث كان كل شيء مألوفًا لي بدرجةٍ جعلَتْني أتلمَّس طريقي دون ضوء، لم يكن باب المطبخ مُحْكَمَ الغلق؛ لم أكن حتى واثقةً أننا كنا نمتلك مفتاحًا له، وُضِع كرسي أسفل مقبض الباب كان الهدف منه أن يُحدِث دفْعُه جلبةً كبيرة إنْ حاوَلَ أحدٌ أنْ يدخل المكان، لكنْ كان يمكن تحريكه ببطءٍ وبحذرٍ دون أن تَصْدُر عنه أيُّ ضوضاء على الإطلاق.

بعد الليلة الأولى تمكَّنْتُ من التجوُّل دون توقُّف؛ لذا استطعتُ أن أكون بالخارج، كما بَدَا لي، في غضون ثانيتين سريعتين، بالطبع لم يكن هناك أي أضواء بالشارع؛ فقد كنا نبعد كثيرًا عن المدينة.

كان كل شيء أكبر من حجمه الطبيعي، وكانت الأشجار التي تحيط بالمنزل تُسمَّى بأسمائها؛ شجرة الزان، شجرة الدردار، شجرة البلوط، أما أشجار الاسفندان، فدائمًا ما كان يتحدَّث عنها الناس بصيغة الجمع، لأنها

تتشابك بعضها مع بعضٍ، والآن أضحَتْ جميعها شديدةَ السواد، وهكذا كان الحال بالنسبة إلى شجرةِ الليلك البيضاء (التي لم تَعُدْ تحتفظ بأزهارها)، وشجرةِ الليلك الأرجوانية، أما المروج الأمامية والخلفية والجانبية، فكان من السهل تجاوزها لأني كنتُ أقلِّمها بنفسي بهدف منح المكان بعضَ المظهر اللائق الشبيه بمظهر المدينة.

وكان كلٌّ من الجانب الشرقي والجانب الغربي للمنزل يطلُّ على عالَمٍ مختلف، أو هكذا تراءَى لي، كان الجانب الشرقي هو جانب المدينة، فعلى بُعْدٍ لا يزيد عن ميلين، يمكنك أن ترى منازلَ مصطفَّةً، بها أعمدةُ إنارة ومياه جارية، أما ناحية الغرب فلا يوجد ما يمكن أن يُوقِف المنحنى الطويل للنهر والحقول والأشجار وغروب الشمس؛ وهي أشياء لا علاقةَ لها بالناس، في رأيي، ولا بالحياة العادية مطلقًا.

قطعت المكان جيئةً وذهابًا، في البداية سرتُ بالقرب من المنزل ثم غامرتُ بالسير هنا وهناك؛ وتلافيتُ بقدر المستطاع الارتطام بمقبض المضخة أو المنصة المدعمة لحبل الغسيل.

بدأَت الطيور تتحرَّك ثم شرعَتْ في الغناء، كما لو أن كلًّا منها فكَّرَ في ذلك على حدة، هناك أعلى الأشجار؛ لقد استيقظَتِ الطيور في وقتٍ مبكر جدًّا عمَّا اعتقدتُ أنه وقتُ استيقاظها، لكنْ سرعان ما بدأَتْ خيوطُ الضوء تتسلَّل عقبَ هذا الغناء المبكر للطيور، وفجأةً بدأ النعاس يغلبني، فعدتُ إلى المنزل حيث كانت الظلمة تغمر المكان، وشرعتُ بدقةٍ وهدوءٍ وحذرٍ شديد في وضع الكرسي المائل أسفل مقبض الباب، وصعدتُ لأعلى دون

أن يَصْدُر عني أيُّ صوت، وفتحت الأبواب وصعدتُ الدَّرَج بالحذر المطلوب بالرغم من أني كنتُ شبهَ نائمةٍ، وارتميتُ على فراشي، واستيقظتُ في وقت متأخّرٍ؛ والوقتُ المتأخر في منزلنا كان يعني نحو الثامنة صباحًا.

كنت أستطيع تذكُّرَ كلِّ شيء حينها، لكن الأمر كان سخيفًا جدًّا، أو بالأحرى كان الجزءُ السيئ منه في واقع الأمر سخيفًا جدًّا لدرجةٍ استطعتُ معها نسيانَه بسهولةٍ كبيرة، كان أخي وأختي قد ذهبا لتلقِّي دروسِهما في المدرسة الحكومية، لكنَّ طبقيهما كانا لا يزالان على المائدة، مع وجود بضع حبات من الأرز المنفوش في اللبن المتبقِّي.

يا له من سخف!

عندما كانت أختي تعود من المدرسة كنَّا نتأرجح على الأرجوحة الشبكية حيث كان يجلس كلٌّ منَّا في أحد طرفَيْها.

* * *

كنت أُمْضِي معظم النهار على تلك الأرجوحة، وربما كان هذا ما يفسِّر عدم استطاعتي النوم في الليل؛ وحيث إنني لم أفصح عن الصعوبات التي كنتُ أواجهها في النوم بالليل، فلم يذكر أحدٌ المعلومةَ البسيطة التي مفادها أنه من الأفضل بالنسبة إليَّ القيام ببعض النشاط أثناء النهار حتى أستطيع النوم.

سيطرَتْ عليَّ الشياطين مرةً أخرى؛ كنتُ أدري الوضعَ بما يكفي بحيث أنهض وأغادر فراشي دون التظاهُر بأن الأمور ستتحسَّن، وأنني في الواقع سأغطُّ في النوم إذا ما حاولتُ ذلك جاهِدةً، شققتُ طريقي بحذرٍ إلى خارج

المنزل كما فعلتُ من قبلُ، كنتُ أستطيع تلمُّسَ طريقي بنحوٍ أكثر يُسْرًا؛ فحتى محتوى الحجرات أصبح بالنسبة إلي أكثرَ وضوحًا وإنْ كان أكثر غرابةً، استطعتُ أن أتبيَّن سقفَ المطبخ المصنوع من ألواح خشبية، الموجود منذ بناء المنزل ربما قبل مائة عام، وكذلك إطار النافذة الشمالية الذي أُتلِف جزئيًّا على يد كلبٍ كان قد حُبِس بالداخل لليلةٍ كاملةٍ، وذلك قبل أن أُولَد.

لقد تذكَّرْتُ ما كنتُ قد نسيتُه تمامًا؛ وهو أنه كان لديَّ ملعبٌ رملي موجود بالخارج؛ حيث كانت تستطيع أمي أن تراقِبني من خلال هذه النافذة الشمالية، لكنْ ثمَّتْ مكانَه الآنَ مجموعةٌ كبيرة من الشجيرات المزهرة المفرطة النمو، وأضحى من الصعب أن ترى ما بالخارج، أما الجدار الشرقي للمطبخ، فلم يكن به أي نوافذ، لكنْ كان به باب يطلُّ على منصةٍ كنَّا نقف عليها كي ننشر قِطَع الغسيل المبتلة الثقيلة، ونجمعها حينما تجفُّ وتفوح منها رائحةٌ ذكية باعثة على الفخر، بدءًا من الملاءات البيضاء وحتى أردية العمل الثقيلة الداكنة اللون.

وكنت في بعض الأحيان أعرِّج على تلك المنصة أثناء جولاتي الليلية، لم أجلس عليها قطُّ، ولكنها كانت تُسهِّل عليَّ النظر باتجاه المدينة، ربما فقط لتلمُّس سكينتها؛ فكل سكانها كانوا قد استيقظوا بالفعل قبل ذلك بفترة طويلة وذهبوا لمتاجرهم التي يعملون بها، وفتحوا أبوابَ منازلهم لإدخال زجاجات اللبن بالداخل، وكانت الحركة تدبُّ في كل مكان.

وفي إحدى الليالي غمرني شعورٌ بأن هناك شخصًا على مقربةٍ مني، وقد انتابني هذا الشعور متأخرًا بحيث كان من الصعب أن أغيِّر من سرعتي، كان

هناك شخصٌ موجود هناك ولم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا سوى أن أستأنف المسير؛ فإنِ استدرتُ، فسيُمسِك بي وسيكون الأمر هكذا أسوأ من أن أكون بمواجهته.

مَن عساه يكون؟ لم يكن سوى والدي.. كان هو الآخَر يجلس على المنصة يتطلَّع نحو المدينة وذلك الضوء الخافت البعيد الاحتمال، كان يرتدي ملابسَ كان يلبسها بالنهار؛ زي العمل الداكن اللون القريب الشبه بذلك الخاص بأردية العمل، وقميصًا داكنًا من القماش الخشن وحذاءً عاليَ الرقبة، كان يدخِّن سيجارةً واحدة لفَّها هو بنفسه بالطبع، ربما نبَّهَني دخانُ السيجارة لوجودِ شخصٍ آخَر هناك، بالرغم من أنه كان من الممكن أن تشمَّ رائحةَ دخان التبغ في كل مكان في تلك الأيام، داخل المباني وخارجها؛ لذا فلم يكن هناك سبيلٌ لملاحظته.

ألقى عليَّ تحيةَ الصباح بأسلوبٍ بَدَا طبيعيًّا بالرغم من أنه ليس هناك أيُّ شيء طبيعي بصدده على الإطلاق؛ فلم نعتَدْ في عائلتنا إلقاءَ مثل هذه التحيات بعضنا على بعض، لم يكن هناك أي شيء غير ودي في هذا الشأن؛ كل ما في الأمر، بحسب افتراضي، أننا كنا نعتقد أنْ ليس ثمة شيءٌ ضروريٌّ ما دام من الممكن رؤية ووداع بعضنا بعضًا في أوقاتٍ مختلفة من اليوم.

رددتُ التحيةَ، لابد أن الوقت قد اقترب بالفعل من الصباح، وإلا لما كان أبي قد لبس وتهيَّأ ليومِ عملٍ هكذا، ربما شقَّ الضوءُ السماءَ لكنه لا يزال يختبئ بين الأشجار الكثيفة، وكانت الطيور تغرِّد أيضًا، كنت قد اعتدتُ أن أظلَّ بعيدةً عن فراشي حتى وقتٍ متأخرٍ أكثر من ذلك، ومع هذا ما

عدتُ أشعر بالراحة كما كنتُ في البداية؛ فاحتمالات عدم الراحة التي كنتُ أشعر بها فقط في غرفة النوم، وفي الفراش ذي الطابقين، كانت تحتلُّ كلَّ أركان المكان.

والآن فكَّرْتُ في الأمر، في السبب وراء عدم ارتداء أبي رداء العمل؛ إذ كان يرتدي ملابسَ مختلفةً كما لو كان ذاهبًا إلى المدينة من أجل القيام بشيءٍ ما؛ أول شيء يفعله في الصباح، لم أستطِع استئنافَ السَّيْر؛ حيث قطَعَ وجودُ أبي إيقاعَ الأمر كله.

قال: "هل تعانين من مشاكل في النوم؟"

كنت أَود أن أجيب بالرفض، لكني فكَّرْتُ في صعوبات شرح سبب تجوُّلي بالخارج في ذلك الوقت، فآثرتُ أن أرد بالإيجاب.

قال: إنَّ ذلك هو الحال عادةً في ليالي الصيف.إنكِ تذهبين للفراش متعبةً وعندئذٍ تتصورين أنكِ ستغطِّين في النوم، فإذا بكِ تظلِّين مستيقظةً، أليس هو الحال معكِ؟

قلتُ: بلى.

أيقنتُ الآن أنه لم يسمعني عندما استيقظتُ وتجوَّلْتُ في تلك الليلة فقط؛ فالشخص الذي تقطن ماشيته في مكانٍ ما بالمنزل، ويحتفظ بما يكسبه من أموال على مقربةٍ منه، ويحتفظ بمسدسٍ في دُرْج مكتبه، كان بالتأكيد سينتفض لسماع أقل صوتٍ تسلَّلَ على الدَّرَج وأقل إدارةٍ لمقبض الباب.

لستُ واثقةً من نوع الحوار الذي أراد أن يدور حينَها، فيما يتعلَّق بمسألة

استيقاظي؛ ويبدو أنه قال: إن مسألة عدم القدرة على النوم أمرٌ مزعج، لكنْ أكان هذا كل ما في الأمر؟ كنتُ أنوي بالقطع ألَّا أخبره بالمزيد؛ فلو كان قد ألمَحَ لي ولو تلميحًا بسيطًا بأنه يعرف أن هناك المزيد في الأمر، بل لو حتى أشار إلى أنه جاء هنا بنِيَّةِ معرفةِ هذا الأمر، فلا أعتقد أنه كان سيخرج مني بشيءٍ على الإطلاق، كان عليَّ أن أكسر حاجزَ الصمت بإرادتي، وذلك بأن أقول إنني لم أكن أستطيع النوم، وإنه كان عليَّ أن أغادر الفراشَ وأسير في الأنحاء.

– وما سبب ذلك؟

– لستُ أدري.

– هل الكوابيس هي السبب؟

– لا..

قال: يا له من سؤال أحمق! فلا يمكن أن يترك المرءُ فراشَه بسبب الأحلام الجميلة.

تركني لكي أُكمِل حديثي، ولم يطرح عليَّ أي أسئلة، كنتُ أنوي التوقُّفَ عن الكلام، لكني استمررْتُ في الحديث، وأخبرته بالحقيقة ولكن مع تعديل واحد بسيط؛ حينما تحدَّثْتُ عن أختي الصغيرة، قلتُ إنني كنتُ أخشى أن أُلحِق بها أذًى، واعتقدتُ أن هذا كان يكفي، يكفي لأنْ يعرف ما كنتُ أعنيه.

قلتُ بعدها: "أخشى أن أخنقها" لم أستطع أن أمنع نفسي من قول هذا في نهاية الأمر.

والآن بما أنني كنتُ لا أستطيع أن أرجع فيما قلتُ، فلم يكن بإمكاني أن أعود نفسَ الشخص الذي كنتُ عليه قبل ذلك.

سمع أبي ما قلتُه؛ لقد سمع أنني اعتقدتُ أني كنتُ قادرةً، بلا مبرِّر، على خنْقِ كاثرين الصغيرة أثناء نومها.

قال: – حسنًا

ثم قال إنني يجب ألَّا أشعر بالقلق، وأضاف:

– ينتاب الناسَ في بعض الأحيان مثلُ هذا النوع من الأفكار.

قال ذلك بجديةٍ تامةٍ، ودونَ أن يظهر عليه أيُّ نوعٍ من الانزعاج أو الاندهاش الشديد، ينتاب الأشخاص مثلَ هذه النوعية من الأفكار، أو المخاوف إنْ صح التعبير، لكنْ ليس هناك داعٍ للقلق حيال ذلك، فيمكننا القول إن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد حلم من الأحلام.

لم يَقُلْ تحديدًا إنني لستُ معرَّضةً لارتكاب مثل هذا الفعل؛ فقد بَدَا أنه كان يعتقد أن مثل هذا الفعل لا يمكن أن يحدث، قال: إن ذلك ربما يكون ناتجًا عن تأثير مركَّب الإيثير، الذي أعطَوْني إيَّاه في المستشفى، وأن الأمر لا يتعدَّى مجرد حلمٍ؛ فلا يمكن أن يقع مثل ذلك الأمر مثلما لا يمكن أن يضرب نيزك منزلنا (بالطبع يمكن أن يحدث ذلك، لكن احتمالية حدوث ذلك تضعه في قائمة الأشياء التي لا يمكن أن تحدث).

لكنه لم يَلُمْني حتى لأني فكرتُ في الأمر؛ كلُّ ما قاله: إنه لم يتعجَّب من ذلك، هناك أشياء أخرى كان من الممكن أن يقولها؛ كان يمكن أن يطرح

عليَّ المزيدَ من الأسئلة عن موقفي من أختي الصغيرة أو عدم رضاي عن حياتي بوجه عام، لو كان ذلك قد حدث اليومَ، فلربما حدَّدَ لي موعدًا لدى طبيب نفسي (أعتقد أن ذلك ما يجب أن أفعله حيال أحد أطفالي، مع تطوُّر الأمور وزيادة دَخْل الأسرة.)

الحقيقة أن ما فعله قد نجح معي بالفعل؛ لقد أعاد لي استقراري النفسي، دون سخرية أو انزعاج، في العالَمِ الذي كنَّا نعيش فيه؛ فقد تتكوَّن لدى الأشخاص بعضُ الأفكار التي سرعان ما يتخلَّوْن عنها، يحدث هذا في الحياة.

إنْ عشتَ فترةً طويلة كأبٍ، فستكتشف أنك ارتكبتَ أخطاءً لم تهتم بمعرفتها بجانب الأخطاء التي تعلمها جيدًا، قد تشعر إلى حدٍّ ما ببعض الاشمئزاز من نفسك، لكني لا أعتقد أن أبي انتابَتْه مشاعر من هذا القبيل، أنا أعلم أنني لو كنتُ قد لُمْتُه يومًا، حينما عاقَبَني بضربي بالمشحذة أو بحزامه، لَكان قال شيئًا عن اضطراره لفعل الأمر؛ إنَّ حالات العقاب البدني هذه كانت ستظل باقية حينها في ذهنه على أنها ليست أكثر من كونها الردْعَ الملائم والضروري لطفلةٍ ثرثارةٍ تتخيَّل أنَّ بإمكانها إحكامَ السيطرة على الأمور.

"إنك تعتقدين أنك شديدة الذكاء." هذا ما كان يمكن أن يقوله كمبرِّر لعقابه لي، وبالفعل إن المرء كان يسمع ذلك كثيرًا في تلك الأيام؛ حيث يتجسَّد هذا النوع من الذكاء في شكلِ طفلٍ شقيٍّ بغيض ينبغي أن يُعاقَب على وقاحته، وإلا فستكون هناك مخاطَرَةُ أنْ يَشِبَّ معتقِدًا أنه ذكي، أو ذكية، بحسب الحالة.

* * *

ومع هذا فقد منحني في ذلك الصباح ما كنتُ بحاجةٍ إلى سماعه، وما كنتُ حتى سأنساه سريعًا، فكرتُ أنه ربما كان يرتدي أفضلَ ملابس العمل لديه؛ لأن لديه موعدًا في الصباح للذهاب إلى المصرف ليعلم، دونَ أيّ اندهاشٍ من جانبه، إنه لن يستطيع مدَّ فترة سداد القرض الذي أخذه، لقد كان يعمل بكل جهده، لكن السوق ما كانت لتتغيَّر أحوالها، وكان عليه أن يجد سبيلًا آخَر لينفق علينا ويسدِّد ما علينا من ديونٍ في آنٍ واحد؛ أو ربما اكتشف أن هناك اسمًا آخَر للرجفة التي كانت تعاني منها أمي، وأن ذلك ما كان ليتوقَّف؛ أو ربما كان يحب امرأةً يستحيل الوصول إليها.

لم أُلْقِ بالًا لذلك؛ فمنذ ذلك الحين، أصبحت أستطيع النوم.

طائر مهاجر

بقلم/ إليف شفق(*)

مثل سلطانٍ له تشريفات، ينذر الشتاء بقدومه إلى هذه البلدة المهجورة، فيرسل مبعوثيه من الرياح العاتية والعواصف الرعدية، قبل بقدومه أسابيع، ليعلم الجميع أن موعد وصوله قد حان، لكن هذه المرة، هبط الشتاء في يومٍ واحدٍ، بل في عدة ساعاتٍ. على غير انتظارٍ استيقظنا في وقتٍ مبكرٍ، ونحن نشعر ببردٍ قارسٍ، وعند منتصف النهار كانت الشوارع قد ارتدت معطفًا أبيضًا وفي وقت العصر، لم يعد الثلج يتساقط على شكل ندفٍ رقيقةٍ، إنما يسقط بكثافةٍ، وأيقنا نحن الطلبة الذين تمكنا من الوصول إلى الجامعة أننا مضطرون إلى البقاء داخل المبنى حتى تصبح الشوارع صالحة للسير مرةً أخرى.

كان الثلج يتهشم تحت قدمي، وكانت فردتا حذائي ثقيلتين كأنهما جردلان من الرمل، كتلك التي تستخدم في الحماية من الحريق. فوجئت بأن المقصف قد امتلأ عن آخره، وبدا كأنه أفضل مكانٍ للانتظار إلى أن يهدأ الطقس.

(*) إليف شفق (تنطق أحيانا ألف شافاك): روائية تركية، لها العديد من المؤلفات باللغتين الإنكليزية والتركية، كما ترجمت أعمالها إلى أكثر من ٢٥ لغة، ولدت إليف في مدينة ستراسبورغ الفرنسية، في ٢٥ أكتوبر ١٩٧١ وقضت فترة مراهقتها في مدريد قبل أن تعود إلى تركيا؛ ألفت العديد من الروايات والقصص باللغتين التركية والإنكليزية، ولكن شهرتها الكبيرة جاءت نتيجة روايتها الشهيرة قواعد العشق الأربعون.

هناك، عند طاولةٍ في ركن قصي، رأيت شخصًا غريبًا يحتل الكرسي الذي اعتدت الجلوس عليه، محتلًا مكاني ومحاطًا بأصدقائي، كان أول شيءٍ لاحظته هو شعره الأشقر الناعم الذي كان فاتحًا إلى درجةٍ أنه بدا عبر الإضاءة الشاحبة المتسربة عبر النافذة فضيًا، في أثناء اقترابي من المجموعة، كان الغريب يميل فوق دفترٍ، ويقول شيئًا لم أفهمه؛ بسبب الضجيج.

قالت ياسمين، صديقتي التي عرفتها منذ أن كنا في الابتدائية:

-آيلا، تعالي وانضمي إلينا، فلدينا زائر يتعلم اللغة التركية.

لماذا يشكل لي شخص غريب يأتي إلى مكانٍ كل واحدٍ فيه يحاول الخروج منه لغزًا؟ ليس كل واحدٍ لديه رغبة ملحة للمغادرة، لكن على الأقل أنا، فجامعتنا ليست بهذه الروعة، ولن يزعم حتى عميد الجامعة غير ذلك، ولا يمكنني أن أمنع نفسي من التفكير بأنني أضيع وقتي هنا، بينما تنتظرني حياتي الحقيقية في مكانٍ آخر..

أخذ أصدقائي يضحكون بصوتٍ خافتٍ عندما استدار الغريب نحوي، وقال بلكنةٍ لافتةٍ للنظر: "مرحبًا اسمي جيرارد "وأنت ما اسمك؟" كم نعشق الغرباء وهم يبذلون جهدًا كبيرًا عند نطقهم بعض الكلمات بالتركية، ويكونون مستعدين لفعل أي شيءٍ يؤكد لهم أن نطقهم جميل، حتى ولو كنا لا نفهم كلمةً مما يقولون!.

على عكس الجميع لم أبتسم، فمد "جيرارد " يده لمصافحتي وأخذ ينتظر. أنا لا أصافح الرجال، فأنا من عائلةٍ متدينة جدًا. منذ أن بلغت الحادية عشرة من العمر وأنا ألبس الحجاب، وأشده جيدًا تحت ذقني؛ ورغم

ذلك لم يستطع جيرارد أن يلتقط الرسالة. هززت رأسي بأدبٍ في محاولةٍ مني كي لا أجرح شعوره. ما إن لاحظ خطأه حتى سحب يده، وزحف طيف من أطياف اللون الوردي على خديه المنثورين بالنمش، كنثرات القرفة المرشوشة على سطح كوبٍ من اللبن الساخن في أيامٍ باردةٍ مثل هذه الأيام. لم أشاهد في حياتي من قبل رجلا يحمر وجهه خجلًا. وهذا الضعف قربه مني أكثر من أي شيءٍ آخر، وكي أعوضه عن الإهانة التي سببتها له، ابتسمت له وعرفته باسمي: "آيلا." وردد اسمي، بصوتٍ حذرٍ: "آ... يلا. "

جلست على الطرف، وأنا أرمق "جيرارد "بنظرةٍ جانبيةٍ: كان كل شيءٍ فيه فاتح اللون؛ بشرته، ومفاصل أصابعه، وعيناه الرماديتان الخضراوان المنقطتان بمسحةٍ من اللون الكهرماني. إنه فاتح جدًا، بالنسبة إلى هذا الجزء من العالم، والغريب أنه يثير في نفسي رغبةً داخليةً لحمايته، رغم أنني لا أستطيع أن أحدد من أي شيءٍ، أو ممن!.

عندما كنت طفلةً، قررت والدتي أن تبهجني بعد أن خضعت لعملية استئصال اللوزتين، فأهدتني كتكوتًا خرج لتوه من البيضة. قضيت اليوم كله وأنا أمسك هذا المخلوق الرقيق بين كفي، ولم أتحرك من شدة خوفي عليه، وكنت أستمع إلى خفقات قلبه الرقيقة وهي تدق بين أضلعه. عشت في خوفٍ شديدٍ عليه من احتمال أن تأكله قطة، أو يجلس عليه أحد. كنت شديدة الخوف عليه إلى درجة أنهم اضطروا في النهاية إلى أخذه مني، وهذا الرجل الغريب الأشقر يذكرني بذاك الكتكوت الأصفر. أريد أن أطبق يدي حوله دون أن ألمسه كي أكون واثقةً فقط من أنه في أمانٍ.

في اليوم التالي، وبعد أن ذاب الثلج وتلطخ بالطين، قابلت ياسمين بعد المحاضرة الأولى. أخذت تعبر لي عن مشاعر الريبة التي تنتابها عندما تقابل أشخاصًا لا تعرف أسماء عائلاتهم ولا أصلهم وفصلهم، قائلةً: "يا ترى ما السبب الحقيقي وراء وجود هذا الرجل الهولندي هنا"؟

– لقد أخبرنا أنه حصل على منحة تبادل الطلبة في إطار برنامجٍ يدعمه الاتحاد الأوروبي.

فأجابت ياسمين بصوتٍ فيه نبرة احتجاجٍ: نعم بالطبع ولكن، إذا كان الاتحاد الأوروبي لا يريد لتركيا أن تنضم إليه فلماذا يرسل طلبته إلينا؟

– ألست تبالغين؟

لكنها تجاهلت اعتراضي، وقالت مكملةً حديثها: ألم يخطر في بالك أبدًا أن يكون من المبشرين بالديانة المسيحية؟.

جفلت برهةً، ثم قلت: هل تعتقدين ذلك؟

هزت رأسها بالإيجاب وشعور بالغضب يتملكها مرةً أخرى، راودني الشعور الطفولي ذاته بالهلع من عدم قدرتي على حماية الضعيف، وأنا أحاول أن أقول شيئًا للدفاع عنه: "من الواضح أنه يحب اللغات وسيصبح مختصًا في علم اللغويات.."

لكن ياسمين حكت أنفها في حركة تدل على عدم اقتناعها: "ولماذا لا يكون جاسوسًا؟"

فقلت معترضةً: "وماذا سيفعل جاسوس في هذه البلدة؟."

ردت ياسمين: "وما يدريك؟"، ثم أخذت ترددها لنفسها في قناعةٍ تامةٍ: "وما يدريك؟." ثم صمتنا لأننا رأينا "جيرارد" يجلس وحده على المقعد، وعندما لمحني رفع يديه في الهواء مستسلمًا وكأنني أرفع سلاحًا في وجهه، لكنني فهمته فلن يحاول مصافحتي مرةً أخرى، والآن جاء دوري كي يحمر وجهي خجلًا..

بالتدريج بدأنا أنا وجيرارد الحديث كي يتعرف أحدنا بالآخر، وبدأت أتشوق إلى رؤيته مرةً أخرى كل صباحٍ. وحذرتني ياسمين التي كانت كالصقر لها عينان حادتان وطبيعة لا تقل شراسةً عنه قائلةً: "ماذا تفعلين يا آيلًا هل فقدت عقلك؟."

– إنه صديقي، وعقلك هو الوسخ!

– لكنه رجل، ورجل غير مسلمٍ. يمكنك التخلي عنه، ستصبح سيرتك على كل لسانٍ، وماذا عن والدك...؟

لم تكن في حاجةٍ إلى أن تكمل جملتها. تستطيع أن تتركها كما هي "وكأنها حلوى تعرضت للذباب، ولا أحد يريد أن يأكلها."

قلت لها بحزمٍ: "لا شيء يدعو للخوف، إنني أعرف نفسي."

في وقتٍ لاحقٍ من الفصل الدراسي، عندما قويت صداقتنا، طلب مني جيرارد أن أعده بأن أصحح له أخطاءه في اللغة التركية. تحت بشرته الحساسة، ووجهه الخجول، كان يخفي ثقةً غريبةً بنفسه، مثل مدينةٍ تحت الأرض. ذات مرةٍ في استراحة الغداء، تذكرنا أول يومٍ التقينا فيه. كانت أسابيع قد مضت على مشهد الثلج والبرد والكانتين. أخبرته كيف بدا لي

شعره الفضي في أول مرةٍ رأيته فيها، كالزبد الفضي للأمواج الهائجة على بحرٍ من الأجساد السوداء، فقال وهو يضحك إنه ورث شعره عن والدته، بالإضافة إلى أسنانه البشعة ونظره الضعيف وعاطفته المفرطة التي لا شفاء منها، ثم أضاف:

– عندما رأيتك في المرة الأولى ظننت – خطأً – أنك من الناس ذوي النفوس الغاضبة.

– ولماذا اعتقدت ذلك؟

– كنت عابسةً جدًا، والناس العابسون يخيفونني.

هزتني كلماته غير المتوقعة والصادقة حتى النخاع، وعندما لاحظ أن تعابير وجهي قد تغيرت قرب كرسيه نحوي ليبدي تعاطفه، وهو حريص على عدم لمسي، ثم قال:

– لكني، بعد أن توطدت صداقتنا فهمت أن انطباعي الأول كان خاطئًا..

جلسنا في صمتٍ لبرهةٍ. ما لم أستطع قوله له هو أنني أعرف النفوس الغاضبة لأن والدي كان أحدهم. كان والدي رجلًا صعب المراس ومشاكسًا، وفيما مضى عندما كان دائم التردد على الأماكن السيئة السمعة كانت قصصه تصل إلينا و– رغم ذلك –كنا ندعي الجهل بها، وبقي غاضبًا كما كان حتى بعد أن ندم على حياته السابقة واختار طريق التدين. ولكن، في كلتا الحالتين كان دومًا غاضبًا، وكأنه كان يقرأ أفكاري، سألني جيرارد عن عائلتي وعن أبوي تحديدًا، سألني عن الإيمان، وعن الله، بحذرٍ شديدٍ كمن يدخل عالمًا يلفه الغموض

وهو خائف من قول شيءٍ خاطئٍ أو القيام بحركةٍ خاطئةٍ وغير قادرٍ في الوقت ذاته على كبح فضوله. وأمام إصراره الخجول، وجدت نفسي أبوح له بأشياء لم أفكر في حياتي أن أقولها لشخصٍ آخرٍ أو على الأقل لشخصٍ غريبٍ. كانت جدتي أكثر الأفراد تقوى في عائلتنا على الرغم من أن طريقة إيمانها مختلفة عن طريقة والدي. بدأت – شيئًا فشيئًا – أحدثها عن "جيرارد"، كنت في أشد الحاجة إلى فتح قلبي لأحد، فقالت جدتي:

– لا تتعلقي به يا حبيبتي.

– لأنه مسيحي؟

– لأنه طير مهاجر؛ اليوم هنا، وغدًا غير موجودٍ..

لمست في كلماتها خيِّطا من الأمل، فتعلقت به وقلت:

– لكنك لا تمانعين لأنه يعتنق ديانةً أخرى، أقصد أنه إذا كان جادًا فبإمكانه أن يصبح مسلمًا في أي وقتٍ أليس كذلك؟.

عبرت وجهها نظرة خوفٍ وقالت:

– هذا الحديث لن يروق لوالدك.

– ولكنك والدته ومن المفترض أن يستمع إليك!.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه جدتي وهي تقول:

– لا أحد يستطيع أن يرقق قلب والدك إلا الله، لكننا لا نعرف متى وحتى ذلك الحين علينا أن ندعو الله وننتظر وأن نمتنع عن القيام بأي شيءٍ يجعل دمه يفور غضبًا.

في اليوم التالي حاولت أن أعطي جيرارد فرصةً لينأى بنفسه عني لكن ذلك لم ينفع. وقبل أن يمضي وقت الظهيرة كنا نتحدث ونضحك معًا مرةً أخرى. أخذ الناس ينظرون إلينا، فمنظر رجلٍ أوروبيٍ أشقرٍ يمشي بقرب فتاةٍ محجبةٍ لا بد أن يكون مشهدًا لا يفوت.

وفي غرفة النوم التي نتقاسمها أنا وأختي فاطمة أمضيت الليل وأنا أفكر في أسبابٍ تمنعني من حب جيرارد وأتساءل: في حال حدث أن تزوجنا: كيف سيكون شكل أولادنا يا ترى؟ هل سيرثون لون عيني السوداوين أو شعره الأشقر؟ ربما سنعيش في هولندا والأفضل أن نسكن في حيٍ يكتظ فيه المسلمون. بالطبع حينئذٍ سيكون جيرارد قد أصبح مسلمًا، وسيكون عليه تغيير اسمه. كانت أختي فاطمة قد عرفت بالقصة:

– سيقتلك والدي. مزقت كل الأوراق التي دونت فيها اسمه. دمرت الهدايا التي قدمها لي؛ هدايا صغيرةً تافهةً، وكل الملاحظات والأحرف والرسومات التي دونها بخط يده الدقيق. واكتشفت أنه من الممكن محو أشهرٍ في غضون ساعةٍ.

قرر جيرارد قضاء إجازة عيد الفصح في بلده. ففي الشتاء الماضي لم يشعر بالعيد. أخبرني عن تقاليد عيد الفصح، وعن الشكولاتة والبيض التي يقدمها الأرنب البري الهولندي وتجنب أي حديثٍ عن نبيه أو عن كتابه المقدس. كنت أستمع إلى كل شيءٍ يقوله، وأستمع أيضًا إلى صمته، وقبل أن يغادر أعطاني كتابًا لجبران خليل جبران هو "المحبوب "، وقال لي:

– لدي نسخة أخرى وإذا قرأنا الكتاب في الوقت ذاته فسنتواصل وعندما نلتقي مرةً أخرى سنتحدث عنِ التجربة.

لم أكن قد بلغت السابعة من عمري عندما بدد والدي كل أموالنا على فتاة ليلٍ، وقام حراسها بضربه في الملهى الليلي الذي تعمل به، ثم أحس بالخطأ الذي ارتكبه في حياته وقرر أن يكرس باقي عمره كي يعدل كفة ميزانه ويكفر عن الذنوب التي ارتكبها في السابق. في البداية اختفت منافض السجائر من المنزل ثم جمعت زجاجات النبيذ الفارغة تحت الحوض وبيعت آخر الأسبوع إلى صبيةٍ من الغجر. ابتهجت والدتي فلن تشم بعد الآن رائحة دخانٍ وكحولٍ ولم يعد عليها غسيل بقع القيء التي تجف على ملابسه، ولن ينظر الجيران إليها بازدراءٍ بعد الآن.

بعد مدةٍ عدت من المدرسة لأجد، في الخزانة الحائطية مكان التلفزيون مزهريةً زجاجيةً فيها ورود بلاستيكية بدلًا من التلفزيون. سألت وأنا أحاول أن أضبط أعصابي:

– أين التلفزيون؟

كانت والدتي تحدق بي وكأنها لا تعرف عن أي شيءٍ أتحدث.

– أعطاه والدك لشخصٍ.

– ومتى سيعيده؟

فأجابت والدتي في منتهى الهدوء: "لا حاجة بنا إلى تليفزيونٍ."

صرخت، وركلت المزهرية وملأت البيت ضجيجًا بقدر ما أستطيع،

وعندما عاد والدي إلى المنزل في ذلك المساء جلست كالفأرة في مكاني. حاولت كل من فاطمة ووالدتي الاستماع لاعتراضاتي اليوم كله وهما تتبادلان النظرات. كانتا تعرفان أنني لن أتجرأ على رفع رأسي أمام والدي ولا تقدر أي منهما على فعل ذلك، فمهما بلغ جنوننا كنا نحرص على ألا يصل شيء إلى مسامع والدنا، لم يضربنا في حياته. لكننا كنا نرتعد خوفًا منه؛ فلديه طريقة وهو ينظر إليك، يخترقك بنظره ويحدق بك بنظراتٍ حادةٍ ومرعبةٍ إلى درجةٍ تجعلك تبكي، وإذا وبخك وأنت على هذا الحال فلن يتفوه بالكلمات بل بأسهمٍ مؤلمةٍ وصاعقةٍ من الغضب. كانت أمي أكثرنا خوفًا منه ويسري خوفها كالفيروس إلينا نحن أولادها. بعد صلاة الجمعة دفعتني والدتي جانبًا، إلى درجةٍ أن شعرها انفلت من الدبابيس التي كانت تشبكه بها. كانت قبضة يدها على ذراعي شديدةً إلى حدٍ آلمني. لا بد أن فاطمة قد أخبرتها. — هل تريدين أن يبصق الناس في وجوهنا، ألا تخجلين؟

لم يكن لدي أي شيءٍ أخفيه، أنا أحبه ورغم أنه لم يعبر لي عن شعوره بعد، أنا متأكدة من أنه يحبني أيضًا، ودون أن أفكر قلت:

— يريد الزواج مني وسوف يعتنق الإسلام!

في هذه اللحظة، لم تكن الحقيقة على نفس قدر أهمية الشجاعة نفسها، فتحت أمي فآها وأغلقته وكأن الكلمات قد ضاعت منها ثم قالت لي متوعدةً:

— ستكفين عن كل ذلك الآن، وإلا فإن والدك سيقتلك ويقتلني.

في تلك الليلة كنت أنام على فتراتٍ متقطعةٍ لكني كنت أطوف في حلمٍ هادئٍ، كان هناك رجل لم أكن أحتاج إلى النظر إليه لأعرف أنه جيرارد. كنا

في مكانٍ غريبٍ، لا هو بكنيسةٍ ولا هو بجامعٍ، لكنه مكان آخر مقدس. كان يمسك يدي وعندما لاحظت أن أصابعه كانت ممتلئةً بالبثور أصابني الجفول. فقال: "كيف سنعيش معًا إذا كنت لا تحبينني"؟ في تلك اللحظة فقط رأيت ملابسي. كنت أرتدي فستان فرحٍ طويلٍ مزدانًا باللآلئ، كنا نتزوج. في الصباح استيقظت وأنا أشعر بسرورٍ. سوف أخبر والدي ولكن في البداية يجب أن أخبر جيرارد بكل شيءٍ؛ ولأنه لم يكن لدينا كمبيوتر في المنزل، قررت أن أرسل له رسالةً إلكترونيةً من كمبيوتر الجامعة، ولأنه ليس لدي خبرةً مع الشباب، لم أكن أعرف ماذا سأقول له، بعد ترددٍ طويلٍ، أخبرته أنني أحبه، وأنني أعتقد أنه يحبني أيضًا وأنه عندما يعود عليه أن يعلن إسلامه وأنه سيكون سعيدًا في هذا العالم، وفي العالم الآخر. قضيت باقي الأسبوع وأنا انتظر جوابه.

وأخيرًا وجدت رسالةً كلمات من لغةٍ اندثرت. قال إن هناك سوء تفاهمٍ وإنه يعتذر إن كان هو السبب فيه، وإن لديه صديقةً وإن الزواج هو آخر ما يفكر فيه، أما عن إسلامه فهو سعيد بديانته ولا يفكر في تغييرها، وهو لن يعود لأنه تلقى منحةً جامعيةً في مكانٍ آخر ولن ينسى أبدًا الوقت الذي أمضاه في تركيا وسيتذكرني دومًا.

لا أذهب في هذه الأيام إلى الكانتين، وأتجنب لقاء ياسمين؛ لأنني لا أحتمل سماعها وهي تقول لي مرةً أخرى: "سبق أن قلت لك ذلك"، كنت مثل ضلفة شباكٍ في عاصفةٍ ماطرةٍ تضرب في الشباك بعنفٍ، أقدم على مخاطرةٍ ثم أتراجع، وأحاول أن أبدأ من جديدٍ، ثم أتراجع مرةً أخرى، لا شيء تغير في حياتي، وفي الوقت ذاته لم تعد حياتي هي نفسها.

كلمتان

بقلم / إيزابيل الليندي(*)

كان اسمها العجيب هو بيليسا كريبوسكولاريو، وهو اسم لم يأتِ من المعمودية أو من نفاذ بصيرة أمها، وإنما بحثت هي نفسها عنه إلى أن وجدته ولبسته. كانت تمتهن بيع الكلمات وتجوب العالم قاصدة المهرجانات والأسواق لتنصب أربعة عصي ومظلة من أكياس، تحتمي تحتها من الشمس والمطر أثناء تلبيتها طلبات زبائنها. لم تكن بحاجة للإعلان عن بضاعتها، فلكثرة ما تنقلت من مكان إلى آخر، صار الجميع يعرفونها، وهناك من كانوا ينتظرون قدومها من سنة إلى أخرى، وحين تظهر في القرية وحزمتها تحت إبطها يصطفون أمام محلها بالدور.

كانت تبيع بسعر مناسب. فبخمسة سنتافو تقدم أشعاراً مرتجلة، وبسبعة تحسّن من نوعية الأحلام، وبتسعة تكتب رسائل للمحبين، وباثني عشر تعلم شتائم محدثة لأعداد لدودين، ومَن يشتري منها بخمسين سنتافو تهمس له في أذنه بهدية هي كلمة سرية لها قدرة على إبعاد الكآبة، ولم تكن تقول الكلمة نفسها للجميع بالطبع؛ فكل واحد يتلقى كلمته التي لا

(*) إيزابيل الليندي يونا: روائية تشيلية، وُلدت في ٢ أغسطس ١٩٤٢، وحاصلة على العديد من الجوائز الأدبية المهمة، ومن الأسماء المرشحة دائماً للحصول على جائزة نوبل. تُصنف كتاباتها في إطار الواقعية السحرية، وتنشط في مجال حقوق المرأة والتحرر العالمي. من أهم رواياتها: بيت الأرواح، وإيفالونا، وما وراء الشتاء.

يستخدمها لهذا الغرض أحد سواه في الكون الرحب كله أو فيما وراء الكون.

كانت بيليسا كريبوسكولاريو هي الابنة الخامسة لأسرة كثيرة الأولاد وبائسة لدرجة أنها لم تكن تملك أسماء لأبنائها. ولدت وبدأت تنمو في المنطقة الأكثر جفافاً، وحتى بلوغها الثانية عشرة من العمر لم تكن لها مهنة معينة ولم تكن تتمتع بفضيلة أخرى سوى قدرتها على الحياة رغم الجوع الدائم والعطش الدهري، وفي سنة شديدة الجفاف، كان عليها أن تدفن أربعة من أخوتها، وحين جاء دورها قررت أنه من الأفضل لها أن تهيم على وجهها باتجاه الساحل، لترى إن كانت تستطيع مغافلة الموت في الطريق. لم تتمكن من ذلك وحسب، بل إنها اكتشفت كذلك الكلمات في ورقة من جريدة طوّح بها الهواء لتعلق بقدميها عند وصولها إلى قرية ملتهبة في المناطق القريبة من البحر. تناولت ذلك القماط الأصفر المتيبس وتأملته طويلًا دون أن تدرك فائدته، إلى أن تجاوز فضولها رهبتها، فاقتربت لتسأل رجلًا كان يغسل جوادًا بالماء الذي أشبعت منه عطشها قبل قليل.

– إنها صفحة الرياضة في الجريدة المحلية.

قال لها الرجل ذلك دون أن يُبدي إمارات الدهشة حيال وجه الصبية، إذ إنَّ الناس المتعلمين كانوا قلة في تلك الأنحاء. حيرت الإجابة بيليسا، واكتفت بالاستفهام عن معنى قوائم الذباب المرسومة على الورقة.

– إنها كلمات أيتها الصغيرة. يقولون هنا إن فولخينسيو باريّا قد أسقط نييجرو تيزناو بالضربة القاضية في الجولة الثالثة.

وكان ذلك هو اليوم الذي عرفت فيه أن الكلمات مثل العصافير، تمضي طليقة دون نظام ولا وعي وبإمكان أي كان بقليل من السحر أن يحبسها ليتاجر بها. تأملت في وضعها وأدركت أن الأعمال التي يمكن لها أن تقوم بها لتكسب عيشها، بعيداً عن الدعارة أو العبودية في مطابخ الأثرياء، كانت قليلة جداً، وبدا لها بيع الكلمات خيارًا سعيدًا، فبذلت جهدها منذ تلك اللحظة لاقتناصها وتدجينها، وتقديمها إلى زبائن كانوا يستغربون الأمر في البدء، ولكنهم يبدون الرضى بعد تجربتها والاعتياد على استخدامها. مارست هذه المهنة دون أن تهتم بمهنة سواها في يوم من الأيام. باعت بضاعتها لسنوات دون أن يخطر ببالها أنه يُمكن للكلمات أن تُكتب أيضاً، وحين عرفت ذلك أدركت أن الكتابة تقدَّم آفاقًا غير محدودة لتجارتها، ولهذا دفعت مئتي بيزو عدًا ونقدًا إلى خوري ليعلمها القراءة والكتابة، واشترت بالبيزوات العشرة التي بقيت بحوزتها معجمًا، قرأته كله، من الألف إلى الياء ثم ألقت به إلى الزبالة، لأنها لم تكن تريد الاحتيال على الناس ببيعهم كلمات معلبة.

في صباح أحد أيام شهر أغسطس، وكانت تحت مظلتها تبيع كلمات في العدالة لشيخ يطالب براتبه التقاعدي منذ أحد عشر عاماً، حين داهم الساحة فجأة رجال الكولونيل بقيادة الخلاسي، المعروف في كل أرجاء المنطقة بسرعة مديته وبولائه المطلق لقائده. لقد خلّف مروره فراغ إعصار، ابتعدت الدجاجات طائرة، وهرعت الكلاب لتختبئ، وركضت النسوة مع أطفالهن، ولم يبق في السوق سوى بيليسا كريبوسكولاريو التي لم تكن قد رأت الخلاسي في حياتها قط، ولهذا السبب استغربت أنه اتجه نحوها وسألها موجهاً إليها سوطه المطوي:

– أأنت التي تبيع الكلمات؟

– في خدمتك.

لم تكد تقول ذلك حتى انقض رجال الفرقة عليها مقوضين مظلتها ومهشمين دواة حبرها، وحملوها على الأكتاف مثلما يحمل البحَّارة كيسهم وألقوا بها على ردف الدابة التي يمتطيها الخلاسي، وانطلقوا على جيادهم صوب الجنوب.

كانت بيليسا كريبوسكولاريو على وشك فقدان الوعي بسبب اهتزاز الجواد حين أحست أنهم قد توقفوا، وأن أربع أيدٍ قوية أنزلتها إلى الأرض. حاولت الوقوف على قدميها ورفع رأسها، لكن قواها خانتها وانهارت وهي تئن، لتغرق بعد ذلك في حلم سعيد. واستيقظت بعد عدة ساعات على همس الليل في الريف الذي زود أذنيها بأصوات جديدة. حاولت فك رموز هذه الأصوات بالبحث عن كلمات في لغات السكان الأصليين التي قد تنفعها في مهنتها، ولكنها لم تجد الوقت الكافي لذلك. فما إن فتحت عينيها حتى وجدت نفسها أمام الخلاسي الذي كان يراقبها بجزع.

– أخيرًا استيقظتِ أيتها المرأة.

قال لها ذلك وهو يمد إليها زمزميته لتشرب رشفة من خمرة كالبارود أعادت إليها وعيها. أرادت أن تعرف سبب هذه المعاملة القاسية، فرد عليها بأن الكولونيل بحاجة إلى خدماتها. سمح لها بصب الماء على وجهها وقادها في الحال إلى أحد أطراف المعسكر، حيث كان أكثر الرجال إثارة للخوف في المنطقة كلها يرقد في أرجوحة نوم معلقة بين شجرتين. لم تستطع رؤية

وجهه، لأن ظلال أوراق الشجر كانت تغطيه، وكذلك ظلال سنوات طويلة من العيش كقاطع طريق، لكنها تخيلت أنه لابد أن يكون رهيباً إذا كان الخلاسي يكلمه بكل ذلك التذلل. ولهذا فوجئت حين سمعت صوته، ناعماً ومرخماً مثل صوت أستاذ.

– أأنتِ التي تبيع الكلمات؟

فدمدمت وهي تشرئب في العتمة لتراه بصورة أفضل:

– تحت أمرك.

حينئذ نهض واقفاً، فأنار المشعل الذي يحمله الخلاسي وجهه، رأت المرأة بشرته القاتمة وعينيه اللامعتين كعيني أسد فأدركت في الحال أنها أمام أكثر الرجال وحدة في هذا العالم. ثم أكدت كلماته هذه الرؤية، فالكولونيل يريد أن يصير رئيسًا. لقد أرهقه التنقل عبر البلاد في حروب لا طائل منها وهزائم لا يمكن لأي حيلة أن تحولها إلى انتصارات، فقد أمضى سنوات طويلة وهو ينام في الخلاء، يلسعه الناموس، ويتغذى بحساء الحيات، ويعرج بإحدى ساقيه في أيام البرد لأن رصاصة في إليته كانت تتهيج بالرطوبة. لكن هذه المضايقات الصغرى لم تكن مبررًا لاستبدال نمط الحياة. فما كان يضايقه حقًا هو رؤية الرعب في عيون الآخرين.

وكان يرغب في دخول القرى تحت أقواس النصر، ووسط الرايات والأزهار المقطوفة لتوها. لقد ملّ رؤية الرجال يهربون، والنساء الحوامل يجهضن، والصغار يبكون لدى مروره. ولهذا كان مصرًا على أن يصير رئيسًا. اقترح عليه الخلاسي الذهاب إلى العاصمة والدخول على صهوات خيولهم

إلى القصر للسيطرة على الحكم، تماماً مثلما استولوا من قبل على أشياء كثيرة دون استئذان، لكنه لم يكن راغبًا في التحول إلى طاغية، لأن ذلك لا يمنحه تعاطف الناس. كان يفكر في أن يتم انتخابه في اقتراع شعبي خلال انتخابات الرئاسة التي ستجري في شهر ديسمبر.

وسأل الكولونيل بيليسا كريبوسكولاريو:

– لكي أحقق ذلك لابد أن أتحدث كمرشح. أيمكنك أن تبيعيني الكلمات اللازمة لخطاب انتخابي؟

كانت قد كُلفت بأعمال كثيرة، لكن أيًا منها لم يكن بمثل هذه الصعوبة، ومع ذلك لم تجد الشجاعة للرفض، لأنها خافت أن يطلق عليها الخلاسي رصاصة ما بين عينيها، أو أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك، كأن ينفجر الكولونيل في البكاء. كما أنها رغبت من جهة أخرى في مساعدته لأنها أحست للمرة الأولى في حياتها كامرأة بخفقة دفء في جلدها، وبرغبة جامحة في لمس هذا الرجل، وأن تضمه بين ذراعيها، وعرفت أنها قد أحبته.

أمضت بائعة الكلمات طوال تلك الليلة وقسطًا كبيرًا من نهار اليوم التالي باحثة في فهرسها عن أكثر الكلمات ملاءمة لخطاب رئاسي، يحرسها عن قرب الخلاسي الذي لم يكن يرفع نظره عن ساقيها المتينتين، ساقي المرأة الجوّالة، وعن نهديها العذراوين.

استبعدت من ذهنها الكلمات الفظة والجافة، والكلمات شديدة التنميق، والمستهلكة من كثرة الاستخدام، والتي تقدم وعودًا باطلة والخاوية من الحقيقة، لتحتفظ فقط بتلك القادرة على ملامسة تفكير الرجال وبداهة

النساء بصورة صائبة، مستخدمة المعارف التي اشترتها بمئتي بيزو من الخوري. كتبت الخطبة على صفحة واحدة من الورق وأشارت إلى الخلاسي كي يفك الحبل الذي يربط به كاحليها إلى شجرة. اقتادوها ثانية إلى الكولونيل، وما إن رأته حتى أحست بتسرع الحب الذي أحست به في اللقاء الأول. أعطته الورقة وانتظرت بينما هو يحدق مطولًا في الكتابة.

ثم سألها أخيرًا:

– ما الذي تقوله؟

– ألا تعرف القراءة؟

– ما أعرفه هو خوض الحروب.

عندئذ قرأت له الخطبة بصوت عالٍ ثلاث مرات، كي يحفظها في ذاكرته. وعندما انتهت رأت رجال الفرقة الذين تجمهروا لسماعها يبكون، ولمحت عيني الكولونيل تشعان بالحماسة. كان واثقًا من أن كرسي الرئاسة قد أصبح ملك يديه بهذه الكلمات.

وقال الخلاسي:

– لابد أن هذا الشيء سينفع، طالما أن الرجال مازالوا يبكون بعد أن سمعوه ثلاث مرات.

سألها الكولونيل:

– كم الأجر يا امرأة؟

– بيزو واحد، يعني مئة سنتافو أيها الكولونيل.

– ليس غالياً!

قال القائد ذلك وهو يفتح محفظة جلد الغزال التي يعلقها في صدره، وفيها بقايا الغنيمة الأخيرة. قالت بيليسا كريبوسكولاريو:

– ولك الحق كذلك بكلمتين سريتين.

– ما الذي يعنيه هذا؟

أوضحت له أنها مقابل كل خمسين سنتافو يدفعها الزبون تهدي إليه كلمة لا يستخدمها أحد سواه لمكافحة الكآبة. هز الكولونيل كتفيه، لأنه لم يكن مهتماً بالعرض، ولكنه لم يشأ أن يكون فظًا مع من قدمت له خدمة جليلة. اقتربت ببطء من الكرسي ذي المقعد الجلدي حيث كان يجلس وانحنت لتسر له بكلمتيه. حينئذ أحس الرجل برائحة الحيوان البري التي تفوح من المرأة، وبحرارة الحريق التي تشع من إليتيها، والملامسة الرهيبة لشعرها، وأنفاس النعناع التي تهمس في أذنه بالكلمتين السريتين اللتين يستحقهما.

وقالت وهي تبتعد عنه:

– هاتان هما كلمتاك أيها الكولونيل. يمكنك استخدامهما متى شئت.

رافقها الخلاسي حتى حافة الطريق دون أن يتوقف عن النظر إليها مثل كلب فاقد الصواب، ولكنه حين مدَّ يده ليلمسها، أوقفته بيليسا بسيل من كلمات مبتكرة كانت قادرة على إفزاعه لأنه ظنها كلمات لعنة لا رد لها.

ألقى الكولونيل الخطبة خلال شهور سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر مرات

ومرات، بحيث لو لم تكن مصاغة من كلمات متألقة، لكانت كثرة الاستعمال قد حولتها إلى رماد. جاب البلاد في جميع الاتجاهات متوقفًا في القرى المنسية، هناك حيث بقايا البراز هي الإشارة الوحيدة إلى الحضور البشري، ليُقنع الناخبين بأن يصوتوا له. وبينما هو يخطب على منصة في وسط الساحة، كان الخلاسي ورجاله ينظفون الشوارع، ويرممون أبراج الكنائس، ويوزعون الحلوى على الأطفال وينقشون اسمه على الجدران. وحين ينتهي خطاب الكولونيل، يطلق رجال فرقته المفرقعات الملونة. وعندما ينسحبون في آخر الأمر، يخلّفون وراءهم خطًا من الأمل يبقى عالقًا في الهواء لعدة أيام، مثل ذكرى نيزك مذنب.

وسرعان ما صار الكولونيل هو المرشح الأكثر شعبية. لقد كان ذلك الرجل الذي برز من الفراغ ظاهرة لم يُعرف لها مثيل، وانتشر صيته في أنحاء البلاد محركاً قلب الوطن. الصحافة اهتمت به، وسافر الصحفيون من أماكن بعيدة لإجراء مقابلات معه، وتكاثر عدد أعدائه.

قال الخلاسي لدى إكمال الأسبوع الثامن من النجاح:

– إننا نتقدم جيدًا أيها الكولونيل.

لكن المرشح لم يصغ إليه، إذ كان يكرر لنفسه كلمتيه السريتين، كما هي عادته في هذه الفترة. كان يذكرهما حين يبدأ بالحزن، ويهمس بهما وهو نائم، ويحملهما معه على جواده، ويفكر فيهما قبل أن يلقي خطبته الشهيرة، ويفاجئ نفسه وهو يتذوقهما في لحظات شروده. وفي كل مناسبة ترد فيها هاتان الكلمتان إلى ذهنه كان يعود إلى الإحساس بالرائحة البرية، وحرارة

الحريق، والملامسة الرهيبة، وأنفاس النعناع، إلى أن صار يسير مثل منوَّم وأدرك رجاله أن حياته ستنتهي قبل أن يصل إلى كرسي الرئاسة..

– أيّة شياطين أصابتك أيها الكولونيل؟

سأله الخلاسي مرات كثيرة، إلى أن قال له القائد أخيرًا إن سبب حالته المعنوية تلك هو الكلمتان اللتان انغرستا في بطنه.

– أخبرني بهما، فقد تفقدان بذلك سلطانهما.

– لن أخبرك بهما، إنهما لي وحدي.

ولتعبه من رؤية قائده يذوي يومًا بعد آخر، حمل الخلاسي بندقيته على كتفه وخرج بحثًا عن بائعة الكلمات. اقتفى آثارها إلى أن وجدها تحت المظلة وهي تمارس مهنتها، فوقف أمامها مباعدًا ما بين ساقيه ومسددًا سلاحه نحوها، وقال آمرًا:

– ستأتين معي.

لقد كانت تنتظره. فالتقطت دواة الحبر، ونزعت مظلة خيمتها، وألقت الشال على كتفيها وصعدت بصمت على الجواد. لم يتبادلا ولا إيماءة واحدة خلال الطريق كله. وبعد يومين وصل الخلاسي إلى المعسكر وقاد المرأة أمام الفرقة لتمثل بين يدي المرشح.

– أعدْ إليها كلمتيها أيها الكولونيل لكي تعيد إليك الرجولة.

قال وهو يسدد سلاحه إلى عنق الأسيرة، وتبادل الكولونيل وبيليسا كريبوسكولاريو النظرات طويلًا، وتفحص كل منهما الآخر عن بعد، وحينئذ

أدرك الرجال أن الوقت قد فات للتخلص من هاتين الكلمتين اللعينتين، لأنهم استطاعوا جميعهم أن يروا عيني الأسد الضاريتين وهما تتحولان إلى عينين وديعتين حين تقدمت نحوه دون أن تبتسم وأمسكت بيده.

الخلاص

بقلم/ براتيبا راي(*)

لنتخيل رجلًا وامرأة يعيشان "معًا" تحت سقف واحد، يتشاركان بالأفراح والأتراح لمدة أربعين سنة، ومع ذلك لم يكلّم أحدهما الآخر ولا رأى وجهه ناهيك عن لمس أحدهم الآخر. بعد خمس وأربعين سنة من دخول شوشي بيت نوري داس ماتت شوشي، وبينما كان ساشيا الابن الشهير لنوري داس (المعروف لدى الناس "بالكذاب") يشعل فم الجثة بنار المحرقة، نظر نوري داس إلى وجه شوشي.

بدا وجهها ضبابيًا قليلًا في عيني نوري داس لأن عينيه كانتا قد أصيبتا في ذلك الوقت بمرض "الماء الزرقاء"، ففي التاسعة والخمسين، لم يعد نوري داس صغيرًا تمامًا. شعاع من شمس الظهر آت من وراء كتلة من سحب بيضاء كالقطن أضاء وجه شوشي البالغة من العمر الثامنة والخمسين، وبدا كأن شخصًا ما جاء من أعماق المساء قد أوقد شعلة قبل أن يتمكن ساشا من إنجاز مهمته، وعلى الرغم من الإضاءة المفرطة، كان من الصعب على نوري داس أن يتبين وجه شوشي بوضوح. كان لديه مجرد انطباع، لا أكثر. كيف يساعد ذلك المرء على تخيل الوجه كما ينبغي أن يكون قبل خمسة وأربعين

(*) براتيبا راي: أكاديمية وأديبة هندية، ولدت في ٢١ يناير عام ١٩٤٤، تكتب أعمالًا إبداعية ونقدية. من بين رواياتها المشهورة:"شيلابادما"، "ياجناسيني"، حصلت على جوائز عدة بما فيها جائزة مورتيديفي وجائزة أكاديمية ساهيتيا.

عامًا؟ وكما هو مألوف، منعت العادة والتقاليد نوري داس من النظر إلى وجه شوشي بعد موتها.

انتهت طقوس إحراق الجثة، وعاد نوري داس إلى البيت، وأخذ يعاني إحساسًا قويًا بالوحدة. كان من الصعب عليه دخول الفناء حيث كان يلاحظ حركة قدمي شوشي لمدة خمس وأربعين سنة، ولم يعد قادرًا على الجلوس في الشرفة حيث اعتادت شوشي أن تقدم الطعام له مرتين يوميًا، وبدلًا من ذلك، جلس تحت شجرة المانجو المعمَّرة في الحديقة الأمامية. لم يفتقدها إلى هذا الحد؟ تساءل في نفسه ما هو المشترك فيما بيني وبينها، في النهاية؟

كان مشهد وجه شوشي كافيًا ليجعل نوري داس يشيح بوجهه عنها. تمامًا كما كان يفعل لسنين عدة لدى رؤيته اليدين اللتين كانتا تحمل الرز في قصعة نحاسية، وعندما كان نوري داس يكلم الجدار أو السياج يأتيه دائمًا جواب من شوشي. على أية حال، كانت تعرف دائمًا متطلباته، على ما يبدو. ولهذا، كان نادراً ما يحتاج إلى مناداتها. فشوشي كانت تضع أمامه الأشياء في الوقت المطلوب وبالطريقة المطلوبة. ففي الفجر تقدم له شايًا أحمر مصنوعًا من السكر الأحمر مع الرز المحّمص. ثم أربع قطع من نبات التنبول، وعندما كان ينتهي نوري داس، تجري عملية توضيب أدوات الحديقة الموضوعة أمامه: المجرفة، والمغرفة، والدلاء، والسلة وغيرها من الأدوات.

يبدأ عند ذلك العمل في الحديقة، وفيما بعد تذكر رائحة الكري الذي تطبخه شوشي بأن الشمس قد قطعت شوطاً في السماء وأن الظهر قد حان.

ينقضي الوقت، وقبل أن تطأ قدم نوري داس البيت، يحيّا بزجاجة زيت في واجهة الشرفة، فيدهن جسمه، ويغطس في بركة الحديقة غطسة سريعة يخرج بعدها ليجد كل شيء معدًّا للبوجا، ولدى جلوسه في بادماسانا يشرع نوري داس برسم خطوط تيلاك على ذراعيه، وتشيتا من جبينه حتى رأس أنفه، وربما يرسم تيلاكًا دائريًا بين خطي تشيتا ويرسم خطًا من التيلاك على صدره.

وما إن يرفع رأسه بعد انحنائه لله، يكون الغداء جاهزًا ومعدًا أمامه. فيجلس ويأكل دون تذمر أو شكوى، كالطفل المؤدب، ولم تكن هناك وسيلة بالطبع كي تعرف شوشي رأيه في طبخها، بل كانت تفلح في الحصول على فكرة تتعلق برأيه هذا عندما يطلب نوري داس، من حين إلى حين، طبقًا آخر من الرز.

كان الحذر والاعتناء الشديد يميزان طبخ شوشي لنوري داس، وكانت تدرك شوشي جيدًا أن من سوء الحظ ألا يتمكن هذا الرجل المسكين من التحدث إليها، وكانت تعلم أنه يستطيع الإحساس بالجوع والغضب؛ لأنه ما من أحد سوى شوشي كان يعلم كيف يعيش رجل بعناية فائقة كما كان نوري داس يعيش.

على الرغم من أن نوري داس لم ينظر إلى شوشي مرّة عن عمد إلا أنها كانت تسترق النظر إليه من تحت خمارها. أما هو، فقد ظل كما كان في شبابه ـ لم ينحف ولم يسمن، ولم يبد عليه سوى مرّ السنين من العمر. إذ بدلاً من كونه منصب القامة، فقد أصبح الآن منحني القامة قليلًا. هنالك سحر معين ورجولة مميزة في مراحل مختلفة من حياتنا. لم يفقد نوري داس ذرة من هذا السحر وهذه الرجولة؛ فهو في البيت عارٍ إلا من إزار أبيض فوق ركبته،

ويلبس قميصًا أبيض عندما يخرج إلى السوق؛ وهذا كل ما لديه من ثياب، فسواء كان في البيت أو خارجه، كان يلبس منشفة حمراء مع قلادة من حبات التولسي حول عنقه، وللتعبير عنه بلغة العامة تقول إنه كان رجلًا بخمسة أيد، لونه أسمر داكن ولكنه وسيم، ذو أنف مستقيم، وجبهة عريضة، وعينين صغيرتين ولكنهما حادتا البصر، وصدر عريض كإطار الباب، وكتفين طويلين مستقيمين كشفرة المحراث. أما معدته كانت غائرة دائمًا في بطنه. يبدو كأنه لم يأكل بما فيه الكفاية. أما يداه وقدماه فكانت قوية؛ حتى دون أن يلمسها المرء، كانت أطرافه هذه تبدو قوية جدًا وتكفي لتبين أنه رغم فقره كان له هيئة رجل حقيقي.

فيما خلى قطعة أرض فسيحة في الفناء الخلفي للبيت بما تنتجه من محصول متواضع، لا يملك نوري داس أرضًا أبدًا، وفيما عدا شجرتين أو ثلاث من المانجو وعصا الطبل، وشجرة موز وشجرة جاك لا يملك شيئًا، وينفق على البيت مما ينتجه ويبيعه من الفواكه والخضراوات الفصلية، وكان يكسب دخلاً جيداً في فصل المانجو. ليس لدى نوري داس فكرة عن سلالة شجرة المانجو الخاصة تلك التي يملكها؛ فهي تحمل ثمرًا من نوعية خاصة: كبيرة، مكوّرة، وذات عصير وافر وقشر رقيق. مثالية للأكل، تملأ جسم المرء من معدته إلى قمة رأسه بنكهتها الطيبة، فكان نوري داس يطلب بسهولة السعر الذي يريد بمجرد أن ينظر إليها الزبون.

كانت أسرته المؤلفة من ثلاثة أشخاص تعيش على حديقة الخضراوات الصغيرة هذه. كان في داخلها بِركة يستحمون بها، وكانوا يروون الحديقة من هذه البركة على مدار السنة، وفي الصيف عندما تجف البركة يحفرون فيها

حفرة يستخرج منها الماء، وكانت الأسماك المتنوعة في بركة نوري داس كالنجوم في السماء. لم تكن ذات نفع لنوري داس لأنه فابشاناف أي (نباتي تمامًا). فكان السمك واللحم محرمين في البيت، فكان يسمح للجيران بصيد السمك من بركته، أما ما عدا ذلك فكان دونه خرق القتاد.

جاء الصيف جافًا قليل الإنتاج، خاصة منتجات الخضار، وفيما يتعلق بشخص يعد بيع الخضار مصدر رزقه مثل نوري داس لن يكون مثل هذا الفصل مرحبًا به أبدًا.

كان لدى نوري داس، على أية حال، مصدر آخر للرزق. فما كان هواية تحول في بيت يسوده الجوع إلى ضرورة. كان نوري داس يتلقى في أثناء أداء الطقوس وفي الأعياد هدايا من الرز المصقول، وجوز الهند، والرز المكسور، والحلويات، والمال، والثياب، والمناشف، وكان مغرمًا بالكرتان وهي عادة قديمة. كان يجلس في آخر المساء في الشرفة المظلمة بانتظار إعداد طبق الكري، يعزف الدولاك. في مثل هذا الوقت يكون صوت الدولاك منخفضًا، ولكنه يتعاظم في الليل، اقترب الليل من نصفه، وأخذت معدة نوري داس الخاوية تتلوى، وغدت الأنغام أشد حدة وأكثر إلحاحًا.

توجد أنواع كثيرة من الجوع في العالم. تمامًا كمذاقات الطعام المختلفة: حلو، وحامض، ومالح، ومر. ومعاناة الجوع مختلفة كذلك: جوع الجسم، وجوع المعدة، وجوع العقل، وجوع النفس. هذه هي الأنواع الأربعة الرئيسة من الجوع، ويتفرع عنها فروع كثيرة تعقد حياة المخلوقات وتصطادها كما يصطاد نسيج العنكبوت الحشرات.

كانت أنغام نوري داس ونقرات الدولاك تعبر عن غباء الكائن المخدوع. لقد عرف نوري داس نوعين من الجوع. ففيما يتعلق بجوع المعدة، فهناك الطعام يسده، أما جوع النفس، فما الذي يسده؟ حسنًا، هناك "الكيرتان". لم يكن من الصعب على نوري داس الصمود وتحمل أي نوع آخر من أنواع الجوع. لا يطرد مجرد الكيرتان جوع المعدة، بل كانت نقرات دولاك نوري داس تفلح في مزج جوع الجسم والعقل مع جوع النفس. بقى جوعان حقيقيان عنده. واستطاع إخمادها بـ"الباجان" و"الكرتان": هيركريشنا هيركريشنا، كريشنا، هير، هير، هير راما، هير راما، هير راما، راما، راما، هير، هير.

من الصعب القول إن شوشي قد عانت من جوع المعدة. إذ ظل جوعاً مختبئاً خلف حجابها. وكل ما استطاع نوري داس رؤيته هو قدماها ويداها. كانت لا تتوقف عن الحركة منذ الصباح حتى المساء. فكانت تصنع أقراص الجلة، وتكنس بالبيت، وتطبخ الطعام، وتغسل الصحون وأدوات المطبخ. إنها لا تطأ بقدميها جوع المعدة فقط بل تطأ جوع الجسم والعقل كما تطأ خليطة الجلة، ومن يدري إن كان جوع النفس لدى شوشي قد ترافق مع كيرتان نوري داس ونقرات دولاكه.

كانت قدما شوشي، وهي شابة، جميلتين، رشيقتين، وعندما كبرت تورمتا بسبب داء الفيل. كان على ظهر قدميها بقعة من أزهار سوداء وُشِمت بها. يداها ناعمتان ورفيعتان، وكفاها رشيقتان رقيقتان، وفيما سوى ذلك لم يكن نوري داس يعرف شيئًا عن جسدها. كان ذراعاها ينكشفان أحياناً وهي تقدم له الرز، عليهما منظر معقد رائع من الوشم، وكان يظهر جزء من أنفها

من داخل الحجاب، لم ير كل من رافق شوشي ساريها ينزلق عن جسمها قط. وعلى أية حال، لم ير أحد عين نوري داس تقع على مثل هذا الفعل الفعال أبداً. وغني عن القول أن كليهما كانا منضبطين تماماً ومحترمين.

لو لم تمت شاشي، أخت شوشي التي تصغرها بسنتين أثناء المخاض بعد أن وضعت صبياً في بيت صهرها لما التزمت شوشي بإخفاء وجهها خلف حجاب طول حياتها. أما نوري داس أحد إخوة خمسة، فقد تبناه عمه المحروم من الخلف، وبعد ذلك بفترة قصيرة، صارت عمته أمًا لثلاثة أطفال. كان نوري داس يعاني من الإهمال لكونه ولدًا متبنّى، ولكن أين ذهب؟ ولكونه ولدًا متبنّى، كان يراوده أمل في أن يكون من ورثة عمه. بعد موت أبيه، دبّر إخوته الأربعة الآخرين معيشتهم مما ورثوه من أبيهم. فكيف يعود ويطالب بحصته من الإرث؟ ألا يحترم نفسه؟

في حوالي مثل هذا الوقت كان والد شاشي يبحث لها عن غار جاماي أي (عن عريس يقيم مع الأنسباء) وفي ذلك الوقت، أصبحت شوشي بطبيعة الحال أمًا لطفل لم تلده. غادر نوري داس بيت عمه وجاء إلى أصهار غار جاماي.

سارت الأمور على ما يرام إلى أن وضعت شاشي طفلها الأول. أما والد شاشي فقد غادر هذا العالم بعد رؤية وجه حفيده. ترك ساشيا الصغير لشوشي كي تتبناه. ظل في البيت نوري داس الشاب البالغ من العمر تسعٍ وثلاثين سنة، والابن ساشيا، وشوشي أم طفل لم تلده وهي في الثامنة عشر من عمرها. كان نوري داس سيتزوج ثانية لو لم يصبح غار جاماي، ولو كانت

شوشي زوجة أخيه. كانت شوشي أكبر من أختها شاشي بسنتين وأصغر من نوري داس بإحدى عشر سنة.

كانت العلاقة بين الاثنين نقية كماء الجانج، كان محرمًا عليهما أن يتحادثا أو يرى أحدهما الآخر. لم يكن بينهما مزاح ولا فكاهات، وبرغم المناسبات العديدة، لم تسمح لهما العادات والتقاليد الاجتماعية أن يقيما علاقة كهذه بينهما، فتلك العلاقة تقودهما بالتأكيد إلى جهنم.

بعد موت أخت شوشي الصغرى، أخبرت شوشي، عن طريق جارتها، زوج أختها بأنه يستطيع العودة إلى البيت إن رغب في ذلك، ويتزوج ويربي أسرة. فالأصول الاجتماعية لا تسمح لرجل في سنه أن يظل عازباً. على أي حال، سيظل ساشيا هنا مع خالته. وسوف يقوم بطقوس الجنازة نيابة عن أسرته. إنه لا يرغب في دعوة طيف زوجة أبيه. يستطيع داس أن يزور ابنه كلما رغب في ذلك، ولكن عليه أن يعلم أنه لا يمكن أخذه معه.

لم يكن قصد نوري داس، طبعاً، أن يقضي بقية حياته عازباً معلقاً بذكرى شاشي. بيد أن الوضع لم يكن في صالحه كي يثبت قدمه في أي من الأسرتين. فهل يعود إلى بيت عمه ويطالب بحصته من إرث عمه؟ من يعطيه شيئاً حتى ولو طلب بنفسه؟ ثم، ألا يحترم نفسه؟

هل يظل يطلب الإحسان من البيوت؟ فضلاً عن أن شوشي أصغر منه بإحدى عشر سنة، وتتبنى طفلاً، والطفل ساشيا معرض للخطر بصورة كاملة.

قال نوري داس: "لا تهمني ممتلكات حماي". ما يهمني هو ابني. يجب ألا يتحدث أحد عن زواج ثاني في هذا البيت". انتزع نوري داس دولاكه

المعلق على مسمار في الحائط. فكان الدولاك رفيقه في بيت نسيبه. أما في بيت عمه كان معتاداً، هو وعمه، على عمل الكيرتان. ظل الدولاك زمناً طويلاً لا يستعمله أحد في بيت نسيبه. أما اليوم فأصبح يشكل ممتلكاته التي كوفئ بها وغدا رفيقه الحميم. قرع الدولاك قرعاً قوياً في ذلك اليوم حتى منتصف الليل. كان قد نسي الدولاك منذ اللحظة التي دخل فيها زوجاً لشاشي.

وكان يقول المثل: "انظر إلى القط، إن لم تر النمر، وانظر إلى خالتك إن لم تنظر إلى أمك". هذا هو بالضبط قدر ساشيا. حتى الآن، يستطيع ساشيا أن يرى النمر في الغابة أو السيرك إن رغب في ذلك. أما أمه فلن يستطيع رؤيتها لأنها لم تعد موجودة. رأى ساشيا صورة النمر، بيد أنه لم تتح له فرصة رؤية صورة أمه. قال الجميع، بلا استثناء، أن خالته منحته من الحب أكثر من أمه. ومع ذلك ولأن ساشيا لم يرَ أمه ولم يشعر بحبها فأنى له التمييز بين حب خالته وحب أمه؟ على أية حال، أصبح ساشيا منذ وعيته يعرف بالكذّاب.

كان ساشيا يؤلف شكاوى حول أبيه لأن أباه كان يدعوه ب "ماخيا" أي (آكل أمه). وبالمقابل كان ساشيا ينتقم من والده بأن يدعو ب "مايباخيا" أي (آكل زوجته). لم تكن هذه التسميات من صنع ساشيا نفسه. بل كان الجيران يخاطبون نوري داس بمثل هذه الصفة. فحيث تلد فتاة في الثالثة عشر أو الرابعة عشر من عمرها، فهل تموت شاهي بسبب المخاض وهي في السادسة عشر من العمر؟ إن طالع نوري داس أثار فأل شؤم لزوجته، وجرى تأكيد ذلك من قبل منجمين عديدين بعد موت أم ساشيا.

يقع بيت نوري داس عمليًا بحذاء جدار المدرسة الثانوية التي أُنشئت في

العهد البريطاني. وكانت قريبة جدًا بحيث يأكل المرء وجبته في البيت ويتمضمض في المدرسة. اعتقد نوري داس أن ساشيا سوف ينجح في الشهادة التي يقدم امتحاناتها في المدرسة الثانوية هذه، وعندها سوف يعامل كرجل مثقف، وسوف يكسب عيشه من وظيفة حكومية، ولن يعيش حياة غير آمنة كحياة أبيه ولا يعتمد على المانجا والصدقات.

يبدو أنَّ ساشيا كان مهملًا لدراسته. إذا كانت فكرة المدرسة وحدها ترعبه، ولم يقف الحد عند ذلك، بل إن الأب والابن لم يتواصلا أبدًا إلى اتفاق وكانت تنشب الخلافات بينهما باستمرار، وقد غاب ساشيا ذات مرة عن المدرسة لبضعة أيام دفعة واحدة وهو صائع هنا وهناك، وأحيانًا كان نوري داس يربط ساشيا داخل البيت عند تلقيه شكوى من المعلم، ويغلق الباب من الخارج ويقول: "طالما أنه لا يوافق على الذهاب إلى المدرسة بانتظام، لن يطعمه أحد في هذا البيت". وكان يعني شوشي بالجملة الأخيرة: إذ من يعتني بساشيا سوى شوشي التي تقيم في البيت.

لم ترد شوشي جواباً. ألا يعاقب الأب ابنه لمصلحته؟ أما هي، فقد صممت على أن تقوم بواجبها كخالة لساشي. لم تكن تسمح لأحد أن يحبطها. فكانت تفتح الباب بالمفتاح الاحتياطي بعد انصراف نوري داس، وتفك ساشي المقيد إلى أرجل السرير ثم تطعمه وتقدم له بعض النصائح، وعندما يعود نوري داس من السواق يرى ساشيا ممسكًا بكتاب كأي ولد طيب. فيراه نوري داس دون أن ينطق كلمة واحدة، وكأنه يعرف ذلك سلفاً. يأكل ساشيا الرز ويمسح دموعه ويتحرر ويجلس إلى كتبه، وما عدا ذلك لا يهم إن كان يدرس حقاً أم لا.

لابد أن يغدو هذا السلوك جزءً من الطقوس. عشر مرات في الشهر على الأقل. كان قدر ساشيا أن يبقى في كل صف سنتين أو ثلاث على الأقل. لم يكن ذلك، بالطبع، مصدر قلق لشوشي. فإذا ما نجح طالب يدرس بتوجيه معلم جيد، وفشل طالب فاسد، ليس ذلك مفخرة للمعلم. فأي معلم ذلك الذي لا يستطيع إصلاح طالب عنيد، متمرد.

كان نوري داس يضع اللوم على ساشيا. أما شوشي فكانت تتهم المعلم، وكان ساشيا يلقي بالمسؤولية على والده، وبدا أن ساشيا قد حمل ضغينة ضد والده لأنه أكل أمه. فلو درس لنجح بالتأكيد، ولكن ذلك سيفرح أباه، مع الأسف، في حين أن غايته أن ينكد على والده. لا أحد يعلم كيف مرت سنوات نوري داس وشوشي والقلق يساورهما بشأن ساشيا. غادر ساشيا الذي أصبح في الثامنة عشر من العمر، البيت في يوم من الأيام وذهب إلى المدينة ومن حسن حظه وجد وظيفة. لم يبق في البيت سوى كائنين: نوري داس وشوشي. لم تعد هناك حاجة للقلق على ساشيا: فما عليهما إلا أن يعنيا بنفسيهما.

بقيت شوشي تلك النفس الباكية، وبقي نوري داس ذلك الرجل القوي الصارم. لم يكونا يخشيان من المرض . سوى مغصات الجوع- أما مصادر القلق الأخرى إن وجدت فكانت تكمن في الذهن لا ترى ولا تسمع خارج الجسم. فلقد كمّ صوت كل شيء، تحت نقرات دولاك نوري داس، وكل شيء اختفى تحت حجاب شوشي.

في القرية يخفي مجتمع الحلابين والغسالين والمهندسين، وغيرهم إسهاماتهم

في العار بما في ذلك العلاقات الغرامية وراء ستار العائلة المشتركة. ربما تحتاج حياة التقشف القاسية التي لا لون لها في القرية إلى قليل من التلون العاطفي يسلي سكان المدينة ويسرّون عن أنفسهم بالرقص، وبالذهاب إلى السينما والمسرح. فأين توجد مخارج تسلية كهذه في القرية؟ فأي خبر ينتقل من الدرج المؤدي إلى النهر حيث تغسل النسوة الثياب، أو من الشرفة أو من مكتب البانشيات يتحول إلى خبر مثير، والخبر المثير يتحول إلى فضيحة كاملة. والنتيجة.. غرامات، بنبذ اجتماعي ونفي من القرية. والحل؟ سحر أسود، وقتل وانتحار.

كان بيت نوري داس، برغم ذلك كله، محصناً ضد هذه الأمور كلها. فقط عندما صاع ساشيا، أصبح بيت نوري داس هدفاً للفضول. فانتشرت شائعات حول ساشيا: تعرّض لهجوم، أو لمحاكمة أو لخطف، وعندما رحل ساشيا عن القرية وتزوج وأقام في المدينة أصبح بيت نوري داس هيكلًا مغلقًا لا صوت فيه، ولا يجذب انتباه المارة. وبالطبع، لم يمنح أهل القرية أية ميدالية لنوري داس أو لشوشي على سلوكهما الأخلاقي الحازم أو طهارتهما الصافية. ومرت سنوات العمر بنوري داس وشوشي شيئاً فشيئاً وهما يحملان عبء العالم.

أسفرت كيرتانات نوري داس عن مرض في الرئة، وتطور مرض الفيلاريا عند شوشي إلى تورم القدمين. لم تكن هناك وسيلة للمساعدة المتبادلة؛ فعندما كان نوري داس يعاني من الأزمة لم يكن باستطاعة شوشي أن تفعل سوى إبداء التعاطف معه من وراء حجابها. وعندما كانت شوشي تنهار من شدة مرض الفيلاريا لم يكن بوسع نوري داس أن يفعل شيئا سوى الجلوس

على الشرفة في مواجهة النسيم العليل ويقرع دولاكه بلطف. فما الذي يستطيعان فعله غير ذلك؟ وكانت تترد نقرات الدولاك أحياناً في رؤوسهم. فمن الذي حكم بأنه إذا وضع أحدهما الماء في فم الآخر يعد عملاً غير لائق! فكان الناس لا يرون في أن تحمل زوجة الأخ طفلاً غير شرعي أمراً غير سوي، أما أن يقوم زوج الأخت بتدليك قدمي أخت زوجته المصابتين بالفيلاريا فيعد جريمة خطيرة، وهكذا استمر نوري داس ينقر دولاكه نقرات عالية.

كلما تقدما بالسن ازداد تعلق كل منهما بالآخر. فكان الحزن والألم والمعاناة التي تصيب أحدهما تسبب قلقًا لدى الأخر، وعلى الرغم من أنهما لم يخاطبا بعضهما بالاسم صراحة، فقد شرعا يخاطبان بعضهما بعبارة تفيض حبّاً وتقرباً هي "العجوز" و"العجوزة". فمثلاً تقول شوشي، في مجتمع نسائي: "إن العجوز يعاني من الأزمة، لقد دمرته. ولا يوجد في البيت حتى هرة صغيرة تدهنه بزيت الخردل، وقد ربط نفسه بالأنسباء وقضى شبابه كله من أجل ولده. فأين ابنه وكنته الآن؟ وما دمت على قيد الحياة سأظل أطبخ له الرز، وبعد أن أخرج من الدنيا، ماذا سيفعل العجوز؟ والحقيقة أنه يفتقد ابنه كثيرًا؛ فهو في النتيجة من دمه. فأنا أفهم حزنه وأدركه دون أن يبوح لي به!".

وبالمثل يقول نوري داس في مجتمع الرجال: "العجوز مصابة بحمّى الفيلاريا. ليس في البيت من ينقط قطرة ماء في فمها. مسكينة. كانت تكن لابن أختها حباً لم تكنه أم. ومع ذلك لم يعاملها ذلك الفاسد كأمه. ولنر هل سيأتي ليقوم بطقوس جنازتها. فهذه هي أمنيتها على الأقل. لم تفعل ذلك صراحة. ولكني أعرف ذلك بالتأكيد".

كيف يعرف نوري داس ما لم تقله شوشي؟ إنه سؤال لم يزعج أحد نفسه بطرحه. فهناك الكثير من علاقات الناس يظل مجهولاً دون التعبير عنه، ولا يؤمن بأن الفم هو وحده مصدر الكلام إلا المجانين. فيدا المرء وقدماه يتكلمان.

وسواء إن أحببت أو كرهت، فإنك تكشف من سلوكك، ومن أسلوب تقديمك للطعام، ويمكن أن تعرف إن كنت تقدمه بعناية أم لا، ومن نقرات الدولاك يمكن أن تعرف إن كنت سعيداً أم لا. حتى أسلوبك في جر المياه من الحقل يكشف إن كنت تافهًا لا حرمة فيك أم أنك مفعم بالعواطف، ولكن الذي حدث هو أن الفرح، والحزن، والجوع، والقلق، والأسى، والغضب، والاكتئاب، والتفاهم، سوء الفهم على مدة خمسة وأربعين عاماً كلها ضاعت في فاهين مختومين. لم يدع أي منهما الآخر يوماً ليقول له: "هيا شاركني في نصف أفراحي أو في نصف أحزاني. إن البشر يتشاركون في المشاعر تلقائياً كما يضيع شذى الزهر في الريح، وكما تبلل مياه الأمطار الأرض المتشققة، وكما تلطخ نقرات الدولاك القمر". ولهذا عندما انهارت صحة شوشي، تخلى نوري داس عن ذاته وكتب رسالة إلى ساشيا:

"عزيزي المحبوب ساشيا:

خالتك على فراش الموت، إنها ترغب في رؤيتك ولو مرّة واحدة قبل أن تغادر هذا العالم، وإن لم تفصح هي عن ذلك. فضلاً عن أنها تعتقد أن ليس لها خلاص إلا إذا أشعلت أنت نار الجنازة. لا بأس إن لم تأت في المستقبل، ولكن خذ هذه الرسالة بعين الاعتبار مرّة واحدة وتعال على الفور.

المتمني لك بالخير أبداً.

نوري داس".

أدرك ساشيا أن نوري داس قد استعاد ذاته وكتب الرسالة نيابة عن خالته، ولهذا لم يختتم الرسالة بعبارة "أبوك" ولم يوقعها بهذه الصفة، ومع ذلك ترك ساشيا كل شيء فورًا وعاد إلى أسرته. ليس استجابة لطلب والده، بل من أجل خلاص خالته. أحضر بسكويت وفواكه وحلويات، وما أن وصل ساشيا البيت حتى كانت ساعات شوشي الأخيرة قد دنت. ولحسن الحظ كانت عيناها ما زالتا نصف مفتوحتين، وما زال في صدرها قليل من نفس. لم تدرك شوشي هل جاء ساشيا بنشاط مبتهجاً أم لا. يبدو أن ساشيا كان يعلم أن نفس خالته كانت تتوق إليه طول الوقت، وقبل أن ينبلج فجر اليوم التالي كانت شوشي قد فارقت الحياة.

انتهى طقس الإحراق، وعاد نوري داس، وجلس بعينين مغلقتين في ظلمة الشرفة وأخذ يعزف ألحانه الحزينة: هيركريشنا، هيرراما، كريشنا، كريشنا هير، هير ـ هير، راما، راما، هير هير.

سمع من الداخل نحيب كنته "أه، يا خالتي العزيزة، أين ذهبت وتركتنا".

يبدو أن ذلك كان عادة من أجل استرضاء الشيطان. جاس ساشيا بجانب الموقد الخامد يذرف الدمع كالطفل باكيًا: "أوه ماوسي أو ماسي!" وكأن بكاءه سيجلب الخلاص إلى شوشي. ظل الدولاك يعزف ألحانًا حزينة طول الليل. وسال الدم من رؤوس أصابع نوري داس المتشققة وامتزج بلحن الخلاص الذي يعزفه.

يوم الميلاد الكئيب

بقلم / بتريسيا فونتين(*)

– تك.. تك.. تك

استنفرت "كلوديا لوروا" حواسها تلتقط دقات الساعة الجدارية الضخمة.. امتزجت الدقات التسعة بدقات قلبها، فرفعت أهدابها المبيضة، ونظرت إلى الساعة مرة أخرى.

– التاسعة تمامًا.

نهضت من مقعدها الهزاز مستندة على عصاها، واقتربت من النافذة مجهدة.. أحست أنها بذلت جهدًا كبيرًا للوصول إلى نافذة الصالة، والحال أنها لم تعد تحتمل هذا النوع من الجهد وقد تجاوزت الثمانين من العمر، لهذا السبب اشترى لها أبناؤها الثلاثة كرسيًا متحركًا ليساعدها على التنقل من مكان إلى مكان – لكنها– في هذه الليلة بالذات لا تشعر بأدنى رغبة في استعمال كرسيها المتحرك، فالليلة مميزة بالنسبة إليها.. إنها ليلة عيد الميلاد، وهذا معناه أن العائلة كلها سوف تحط رحالها عندها، في سهرة مملوءة بالدفء والفرح.. ابتسمت في سرها وهي تتخيل شكل السهرة العائلية.. أبناؤها الثلاثة "هنري"، "روبرت"، "ديمتري" وزوجاتهم وأبناؤهم..

ككل ليلة عيد ميلاد يأتون حاملين الهدايا والبهجة والقبلات الحارة التي

(*) بتريسيا فونتين: كاتبة فرنسية معاصرة، أصدرت عددًا من الروايات والمجموعات القصصية.

تملأ قلبها فرحًا وأمنًا، فتشعر السيدة "كلوديا" بأنها أقل وحدة عما تصورته منذ رحيل زوجها "شارل" إلى العالم الآخر.

"أجل.." قالت في نفسها.. "سيمتلئ البيت بالضجيج والضحك وسوف نجتمع كلنا حول مائدة العشاء المكتظة بأنواع شهية من الديك الرومي المحمر، وسوف يغنون للعيد حتى يدركهم التعب في ساعات الصباح الأولى، ليذهب كل واحد إلى غرفته، وكانت قد أشرفت على ترتيبها بمساعدة خادمتها "جوليا" التي بدت في حالة مزرية من كثرة أوامر سيدتها.

كانت الشوارع تبدو شبه خالية تحت تساقط المطر.. التمع البرق فجأة، فتركت الستارة تسقط، وعادت مجهدة إلى مقعدها مرة أخرى.. في مثل سن ووضع السيدة "كلوديا لوروا"، الوحدة كالغول، ومع ذلك لا أحد يبدو مهتمًا بأمر كهذا.. منذ مات "شارل" تركها الجميع لقدرها؛ وبدورها عز عليها الاعتراف للآخرين أنها تعيش وحيدة بوجود "جوليانا" معها صحيح أن "جوليانا" مجرد خادمة لكنها موجودة معها تحت أمرها في الليل والنهار وحدتها جعلتها تنظر إلى الخادمة نظرة احتياج عاطفي.

– لابد أنهم على وصول!

قالتها مصممة، وحركت حواسها على صوت أبواق سيارات قادمة.. نهضت من مقعدها فرحة، وتوجهت شبه راكضة نحو النافذة لتصطدم بالخيبة وهي ترى الزوار فقد جاءوا للبيت المقابل.. وخزها قلبها، فعادت إلى مقعدها متوجعة.

– تك.. تك.. تك

نظرت إلى الساعة الجدارية الضخمة.. العاشرة.. في تلك اللحظة

ظهرت "جوليانا" مقتربة بخطوات رتيبة.. قالت بصوت ضجر:

– إنها العاشرة يا سيدتي

– أعرف أنها العاشرة.

لكن، سرعان ما أحست بالذنب من ثورتها على خادمتها.. قالت كأنها تعتذر لها:

– سيأتون حتمًا يا "جوليانا" أليس كذلك؟

ولاحت على شفتي "جوليانا" ابتسامة مشفقة وقالت:

– أجل سيدتي، لابد أنهم على وصول.. ككل أعياد الميلاد.

فجأة، رن جرس الهاتف.. بأمر من عيني السيدة "كلوديا" رفعت "جوليانا" السماعة:

– منزل السيدة "كلوديا لوروا"، نعم..؟

– ....

– أهلاً سيدي "هنري"..

– ....

كانت الأمطار قد ازدادت تساقطًا عندما اقتربت "جوليانا" من سيدتها لتقول لها بصوت يشبه العزاء:

– إنه السيد "هنري" يعتذر باسم الجميع، ويقول إنهم لن يأتوا هذه الليلة.

الأوراق الميتة

بقلم / تسليمة نسرين(*)

أمسح الرصيف في "رامانا" والضوء يسقط من فانوس الشارع، على بشرتي حولها وبدل لونها، صرت أكثر نقاءً وصفرةً، وأنا ابنة القاع لوني كالنحاس، لون الأرض، صرت كالكركم، مشدوها في هذا اللون، كان زبائني من الرجال يتقززون من لوني الأسمر الداكن وبقايا جروح الجدري، المتفرقة اكتشاف بؤسي، يثير عدة مشاعر، البعض يتقيأ، والبعض يصر ألّا يدفع، والمخمور يضحك على لوني، ويدفع بعضهم زيادة كأنني متسولة، بعض السكارى لا يدفع وعندما احتج، نصيبي هو الصفع والركل، وأبكي، بعد كل ظهيرة، أذهب متجولة في أرصفة "رامانا" ليس بحثًا عن الزبائن، فالشرطة تزعجني، وسائقو العربات يضايقونني، فأنا مغرمة بالتنزه، لكي أنسى واقعي، أتأمل أغصان الأشجار الظليلة، يومًا وجدت فراشة ملونة، صعدت الجدار لكي أمسكها، عدت طفلة بريئة، أتذكر عندما كنت أُطارد الجراد، أربطها في خيط، تطير وأنا أمسكها، أحس نحوها بالعطف وأطلق سراحها، فالحر يعطي الحرية لغيره.

(*) تسليمة نسرين: كاتبة من بنجلاديش، ولدت في دكا في ٢٥ أغسطس ١٩٦٢، عملت كطبيبة قبل أن تحترف الكتابة، عاشت في المنفى منذ عام ١٩٩٤، ثم حصلت على الجنسية السويدية، بدأت بكتابة الشعر في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، لكنها حصلت على شهرة عالمية بحلول نهاية القرن العشرين بسبب مقالاتها ورواياتها التي ناصرت فيها المرأة وانتقاد الأديان بشكل عام.

أتجول صغيرة في غابة التمر هندي، أطارد الفراشات، والمارة مشفقون على طفلة تتجول في الغابة وحيدة، وأقطب وجهي وأعبس به. كنت لا أحتاج لأحد، الآن أتمنى تلك التقطيبة، أن يهرب الآخرون مني ولا أحتاج لهم، هؤلاء الذين ينتهكون جسدي، ولكن أين المفر؟ وإلى أين أهرب وأفر؟" هربت يومًا أجلس تحت أقدام عمي "سيتارا". قال لي: لا تخافي أنهم بشر، لم أكن أخاف منهم، ولكنني كنت أكرههم، لم أكن جبانة منذ صغري، وأنا أجوب الغابة حرة، فتاة في الثالثة عشرة والبعض يقول ستكون قاطعة طريق..

وأنا انتظر غروب الشمس في داخلها، كي ألتقط الأغصان والأوراق الصغيرة الجافة، أعطيها برجوعي لأمي.. وهي تطبخ جالسة قرب النار في فناء المنزل. أتقرفص لكي أتدفأ بالنار والأرز يغلي، يغمرني بخاره، وهي تقول لي صدق الآخرون فأنت شجاعة لا تعودي إلا بحلول الظلام، في مرة، هبط الليل على الغابة، عمت رائحة طيبة.. أي زهرة تفتحت الآن، من أين؟ لا أدري، أشجار التيك والمهوقني، أشجاري المفضلة، أعرف ميعادها أما هذه الرائحة لا أعرفها، رائحة منعشة، كنت أحب أن أتمرغ في تراب الغابة، أقطف فطرياتها، كنت أحب الاستحمام بالتراب أكثر من الماء، على ضوء القمر المكتمل بدرًا، والغابة مضيئة وأمي تقول لي الأشباح تخرج من الغابة ليلًا، تفضل الأغصان. وما كنت أخاف. البي نداء يراعاتي وفراشاتي الملونة، وبدري المكتمل، يحمل غابتي المفضلة.

أسمع عند الغروب صرير الجنادب، أسمع اصطدام الأوراق الجافة، تتكسر من وقع أقدامي الصغيرة، وأمي تتوسل أن أعود وهي تناديني "أنجوري، انجوري، اليوم لا أحد يناديني به، وزبائني يسألونني دائمًا، ما اسمك أيتها الصغيرة، وأرد

أنا لا اسم لي. كيف يكون ذلك؟ وما اسم والدك الملعون؟ لا أعرف، هل أنتِ ابنة زنا؟ نعم، وأجاوب، ولا يضطرب صوتي أبدًا، ولماذا يضطرب؟ فلا أعرف منذ صغري، ما هو شكله وأين يسكن، وما اسمه؟ وأنا أمطر والدتي بهذه الأسئلة، ولا تجاوب وأكتفي بالصمت، أحيانًا كانت تقول لي الفقراء لا والد لهم، والدهم الفقر، وهو والد أغلب الناس في الكون. ولماذا مهتمة بذلك؟ ستظلين فقيرة وعندما تغضب أنظر لأحمرار وجهها، ويعجبني، وهي تقول والدك من يطعمك، وأقول لها أنت، وتقول نعم أنا والدك ووالدتك. وأنفجر ضاحكة، بعضهم يقول بأن اسم والدي "صدر الدين" وبعضهم يقول بأنه "ناشو باجلا" بجانب اسماء أخرى "أمان الله" "باربك ميان" وأقول لها من هو في هذه الاسماء، وترد بابتسامة، لا أحد. وعندما ألح تقول لي دعيهم يختارون لك بمزاجهم فأنتِ محظوظة فلك أربعة آباء. لا تهتمي بمن لا يطعمك في هذه الدنيا، فأنا والدتك كنت مثلك، كنت أموت جوعًا، واحدًا منهم لم يطعمني، ما كنت أعرف غير والدتي، في كوخنا المصنوع من الطين المحروق، كانت تترك فانوس الزيت حتى الصباح رغم الغلاء، فقد كانت تخاف علي، وحيدة بائسة، كانت تعمل خادمة، ببعض الروبيات، مع التسول، من مهربي الأخشاب، متنكرة بنقاب يغطي وجهها، تبيت بوجبة واحدة، حفنة من الأرز، كنت تفاحة قلبها وما تملك في الدنيا، ننام على الحصيرة، من البرد نتغطى بخرق بالية، وأتدفأ بحضنها، نستيقظ، تصارع لكي تكسب حفنة من المال، وترعاني، تخاف علي من الغابة، ومن لا يحترم القانون، وتقول لي الفقراء يخرقون القانون لأنه لا يطبق إلا، وكبرت وصرت أكثر ضخامة من أمي، وعرفت أن الفقير عدو القانون، لأنه لم يشارك في وضعه.

عشت أكره الرجال، فأمي لا تنام الليل حتى لا يداهمنا أحدهم، تنتظر عودتي من الغابة، وهي خائفة وغاضبة، يا لتعاستها، تعيش في كوخ متهدم، بضربة واحدة يستطيع القوي تحطيمه. سلاحها الوحيد خنجر قديم صدئ، ومصباح زيتي، كنت في الثالثة عشرة فتاة مرغوبة، يغازلني البعض في الطريق، وفي اكتمال القمر أطفئ المصباح وأفتح النوافذ، حتى يتسلل ضوؤه يغمر كل الغرفة.. ذلك المصباح الضخم يتوسط السماء، وما تزال الليالي المقمرة تأسرني، في "رامانا" أتمدد على الحشائش في البراري الشاسعة، هي ملكي أنا، أبقى مستلقية وحيدة، فأنا نبتة، حشيشة في حقل كبير، لا أب لي، ولا جار، لا أملك إلا السماء والأرض والحشائش والنجوم أناديها لتأخذني معها، ويومًا سألت أمي نفس السؤال، من هم والديك، لم تجاوبني، اعتبرتها دودة مضيئة تنير الكوخ، ولا نعرف وليس بالضرورة أن نعرف من أين جاءت؟ ويومًا حكت لي ببراءة وهي تقول "كان عندنا منزلاً، مواقدًا للطعام، ووالدين، أتعرفين، وقطعة أرض نزرعها، لا نعرف الجوع والعوز، أمي تخزن الأرز، نأكل ثلاث وجبات، نصطاد السمك من البحيرة التي قربنا، نمتلك أبقارًا، نشرب حليبًا طازجًا، وفجأة حلَّت المجاعة، صارت وجبتنا واحدة، والذئب في أمعائنا لا يرحم، باع أبي ماشيته، ثم الأرض، وأخذ يشتري الأرز الذي صار سلعة نادرة، باع أبي سرير الخشب، والأثاث، والخزانة، وكل ما نملكه..

في يوم صباحي استدعاني أبي "يا جارينا" سنذهب للسوق، سنشتري لك فستانًا، دهشت رغم المجاعة بفعل ذلك، ذهبت معه، كان ذهابا بدون عودة، باعني أبي لأحد التجار بثلاث روبيات. عاد بدوني، غرقت في دموعي،

لم أصرخ فقد كنت جائعة. حزنت لوالدتي، وتاريخها، لو كان عندي والد لباعني أيضًا، منذ حكاية أمي أصابتني فوبيا الآباء، حمدت الله في سري. وأمي تبكي محاولة تبرير فعل والدها وهي تقول: "أنه الجوع" وأحيانًا تنكره وتقول: الأب لا يبيع ابنته، كان زوج أمي فقط. فالأبوة وظيفة لا يجيدها الكثيرون. ويزداد إيماني بأن أمي دودة مضيئة، تنير دروب الآخرين ولا تعرف ذلك. سوداء مثل ابنوسة، حادة الأنف، عيناها لامعتان، مثلي، أنظر لعيني أتذكرها، شعري المسدل مثل شعرها، كأنها استنسختني من نفسها فهي أبي وأمي، سألتها ماذا حدث بعد أن باعك والدك؟ وتركك دامعة في السوق؟ أمسكني من اشتراني بقوة، قادني خلفه كسلعة رخيصة نحو الجنوب. عكس اتجاهنا، غريبة. أعطاني خبزًا بائتا، في تلك اللحظة وأنا آكل نسيت حزني وفقدان أبي وأمي وقريتي. وصلنا "شيامو جوني" نمشي، ونعبر القنوات، حتى مغيب الشمس، والمكان بعيد ممتد، وصلنا في الليل، عطشت، لم يقدم لي أحد نقطة ماء. حلقي جف. حالة لازمتني حتى الآن.

ربت على صدرها، لم أفهم هذا العطش الملازم لها حتى الآن. وأنا أيضًا.. طلبت من أحد الرجال أن يعطيني ماءً، ضحك من نحسي وشؤمي.

صديقي "سوبول" كان ولدًا طيبًا، يداعب أصابعي، نقضي ساعات في الغابة، أطلب منه أن يحضر لي سنجابًا. ويستجيب، سوبول يسيل من أنفه المخاط، كان كسيحًا، وأقول له يا سوبول، أنت لا أب لك مثلي، ويقول لي تعالي لنذهب إلى مكان بعيد من الناس، إلى أين؟ إلى "دلهي" نخترق النهر سباحة، وظلت أحلامنا أرضية كالأوراق الجافة، ونعود لمنزلنا كل يوم، أنا وحدي كانت لي أُم وكوخ آوي إليه، وسوبول، لا أب ولا أم ولا مأوى، ينام

في كوخ مهجور لحارس الغابات، سوبول في نصف عمري، يتيمًا، يأكل بإحسان من الآخرين. وأقول لأمي سوبول لم يأكل منذ يومين، تبكي، ونناديه يشاركنا ونسعده.. رأيته يومًا يتسول بصوت هده الجوع، ويقذف به الحراس بعيدًا. أمي لم تطرده أبدًا، فهو أخانا في البؤس. كانت الكريمة، المضيئة، أورثتني هذا الكرم. أتأمله أراه وأنفه السائل ورجله العرجاء، جميلًا، أسأله ماذا ستصير عندما تكبر، ويقول لي أتمنى أن أكون لصًا كبيرًا، وسأقتل الناس، تقتل من؟ سأقول لك فيما بعد، يقول ذلك وهو مستلقي على الحشائش، يخلف رجليه، شبه عاري، ولا أنام الليل، أشكو لوالدتي مستقبل سوبول المظلم سيصير قاتلًا، وتبكي أمي كأنه سيحدث فعلا، وأقول له أنا سأقتل "جامير ميوني" لأنه قال لي يومًا سأذهب إلى أمك. أمي التي أخاف عليها، وهمها همي، أحس عندما تداعبني، بأنني سنجابها المفضل، تطعمني أرزًا مطبوخًا، وتنام جائعة، بكيت عندما رأيت أمي يومًا تتناول عشاءها كوبًا من الماء، يومًا ذهبت أبحث عن "سوبول" شممت رائحة جميلة، جريت خلفها، وجدت زهورًا رائعة وجميلة، استلقيت عليها نسيت جوعي وبؤسي والعالم من حولي آه لو لم تكن أمي في انتظاري لنمت الليل هنا، حرة مثل "سوبول". افتقدته كثيرًا فقد احترف مهنة التسول في سوق الأناناس. يعود سعيدًا ببعض الروبيات. رأيته يومًا بسروال قصير، أعطته له زوجة الحارس، لم يعد يطارد لي السناجب، وأحزن لهذا التغيير، ويقف خلفي يقول لي "ألا ترين أنني صرت غنيًا، عندي مشروعًا لاشتري حذاء، وأحلم بزراعة الأناناس، سأبني منزلًا كبيرًا، هنا؟ لا، في "دبي". هل نذهب سويًا؟، سأرى ذلك. وأشعر بالحزن، ثم يتوجه إلى السوق، ولا يسمح لي بالذهاب معه، ويقول لي

بالإنجليزية ليس لدي "Time" لأُثرثر معكِ، لقد صار بعيدًا عني بعد أن لبس هذا القميص الجديد وذهب إلى السوق، معلونة الرأسمالية. غرت منه، من هذا التغير الجديد. أنا أيضًا سأذهب إلى "دبي" وأشكو لأمي، قائلة لها بأنني لا أقل عن "سوبول" الذي أصبح يبيع الأناناس، وذهبت إلى الغابة حيث الزهور والانطلاق والحرية، صرت حرة أكثر من "سوبول" كبرت قليلًا، اتسعت دائرة أصدقائي، نصحوني بالزينة والاستحمام بالصابون، رفضت فأنا الطبيعة وزينتها، وأطلب فستانًا جديدًا من أمي التي تعمل خادمة في أحد المنازل بعشرين روبية، وترفض. رأيت بعض عمال الغابات يكسرون الطوب، عملت بدلًا من واحد منهم كان مريضًا أعمل بدلًا منه حتى لا يموت أطفاله من الجوع، تمنيت لو كنت صبيًا أعمل لأطعم أمي. جاء يومًا "جامبير بيونس" ليقول لأمي يجب أن تزوجي البنت فقد كبرت، ولو فعلت ذلك، لأكلت وشربت، وأسأل أمي عن الزواج، وأحس بأنها لا تريد مفارقتي، وتقول لي بأن الزواج نوع من الرق. قلت لها أريد أن أتعلم، وتقول لي بأن التعليم للأغنياء، وأسألها لماذا نحن فقراء ولسنا بأغنياء، وتقول لي بأن الله يريد ذلك.

"جامبير ميونس" فعلها لأول مرة، كمم فمي، كنت راقدة اشتكي، أمي لم تكن في المنزل، ذهبت تقترض بعض حبيبات الأرز لتطعمني، جاء هذا الرجل ليقابلها، رآني في السرير مسح جبهتي، قال إنني مريضة، ثم غادر، جاءت أمي، كنت أحكي لها حكايتي ببراءة حتى الفجر وأمي تبكي، لقد انشطر قلبها نصفين، شفيت من مرضي بالأعشاب والحمية، بقيت أمي في المنزل، ونحن نموت من الجوع. وأمي حزينة لما حدث لي، ترفض طبخ الأرز،

كأنها تريدنا أن نموت، وفجأة تلتفت والدموع في عينيها لتقول لي أن "جامبير ميونس" هو أبوك الحقيقي أيتها التعيسة وأنظر للسحب، تتنقل حرة في السماء، ليتني كنت سحابة، بعيدة من الحزن، فحزن الدنيا كله البسوني إياه، وغادرت مع بقجة ملابس سيرًا على الأقدام، إلى "داكا" بين فترة وأخرى كنت أفكر في أمي و"سوبول" ولا أعرف ما حدث له، هل صار لصًا، أم تاجرًا ناجحًا؟ ما تزال ذكرى الطفولة بداخلي، ما زالت رائحة الغابة والزهور والحشائش في أنفي، وأنا أضرع وأجوب شوارع "رامانا" أتمنى لو أختبئ في حقولها وحدائقها، كما كنت أفعل في الغابة بعيدًا عن الرجال، لا أدري ما الذي جاء بي إلى هنا.

أحيانًا تأتيني رغبة الانتحار، ما فائدة الحياة وجسدي ينهكه الرجال؟ ومع ذلك لا آكل إلا وجبتين في اليوم، كانت تراودني الرغبة أن أعود إلى مدينتي مسقط رأسي "راسلبور" أجلس تحت ظل شجرة من أشجارها الضخمة، وتحتي بيت من بيوت النمل، اتمدد، استلذ بوخزاته، وكلما يمر يوم أحس بالجدار يفصل بين الماضي والحاضر. سألني العم "سيتارا" هل تريدين وظيفة؟ نعم، موظفة بدوام من العاشرة وحتى الخامسة بمرتب شهري، وأقول له استطيع أن أكسب أكثر ويضحك، ويقول لي أن كان هذا يروقك فمري عليَّ غدًا.

وأنا اتسكع في شوارع "رامانا" قررت أن أذهب لأعمل موظفة، بعد أن اغتسل بالماء، حمامًا طويلًا، أنظف نفسي من تراب الشوارع، أتطهر من دنس الآخرين، واتذكر حمام أمي، وغسلها شعري، وهي تغني تهدهدني، وأحس بأني امتلك الدنيا، ونحن أفقر الناس، ومازلت أحلم بالغابة والبراءة

والطبيعة البكرة، ظل الأشجار الوارف، ورائحة الزهور البرية، بعيدًا عن الرجال وقبحهم، أحلم بأن أكون غصن شجرة، أو سحابة بعيدة من المدن الكريهة، حتى ولو كانت "دبي" أو "دلهي" أو "كلكتا". ارتمي في حضن أمي وأبكي، أبكي وتغسلني الدموع تطهرني، وأعود طاهرة بريئة نقية كما ولدت وعشت طفولتي هانئة وسعيدة.

بلد النساء

بقلم / جيوكونا بيللي(*)

كان مساء رياح وبرودة من شهر يناير عصف ريح الشمال القوية يشوش المشهد باختلاطاته، وفي المدينة، كانت زوابع أوراق الأشجار المتساقطة تشكل حوامات تطفو من رصيف إلي آخر وتلامس حواف الطريق بجلبة جرجرة سُلَّم صول مينور. ماء البحيرة قبالة قصر فاغواس الرئاسي كان مائجًا وقاتمًا كلون القهوة بالحليب. تنبعث منه رائحةٌ صفراء، رائحةُ أزهارٍ برية فاسدة، رائحة أجساد متعرقة متزاحمة.

وفوق المنصة، أنهت الرئيسة بيبيانا سانسون إلقاء كلمتها ورفعت ذراعيها عاليًا بحركة انتصارية. كان يكفيها أن تهز ذراعها حتي ينفجر الميدان كله بتصفيق متجدد. إنها السنة الثانية لولايتها، والسنة الأولى التي يُحتفل فيها، بكل أبهة، بـ"يوم المساواة بكامل معانيها" وهو اليوم الذي أمر حزب اليسار الايروتيكي (ح.ي.إ) بإدراجه ضمن تقويم أهم أيام البلاد. كان التأثر يعّكر عينين الرئيسة؛ فكل أولئك الناس الذين ينظرون إليها بحماسة عظيمة، هم السبب في وجودها هناك وشعورِها بأنها مبعث سعادة في العالم، الطاقة التي يبثونها فيها قوية إلي حدٍّ رغبتْ معه في مواصلة الحديث عن الأحلام الجنونية التي تحدّت بها توقعات الكثيرين بأنه لا يمكن لها الوصول إلي الحُكم

(*) جيوكونا بيللي: من مواليد يوم ٩ ديسمبر ١٩٤٨ في ماناجوا، أصدرت عددًا من الروايات والأعمال الأدبية منها: "الكون في راحة اليد" و"المرأة المسكونة " و"بلد النساء".

أبدًا، وأنه لا يمكن لها أن ترى، مثلما تفعل الآن، نتيجة الجرأة والجهد العظيم الذي ثابرت عليه مع رفيقاتها في حزب اليسار الإيروتيكي.

نظرتْ في ما حولها. هنالك فتيات فوق سطوح الأبنية المحيطة، وفتيات يتسلقن أشجار الحديقة المجاورة، وحتى فوق سطح مستديرة وسط الميدان، ورجال يجلسون على أدراج القصر الرئاسي. بينما تنتشر، حول المنصة، شرطيات الحزام الأمني، يتلفتن بحذر تحت ضغط الحشود. يا للمسكينات، فكرتْ بينما هي لا تزال تهرول من جانب إلى آخر، تهز ذراعيها عاليًا، تجول على المنصة الدائرية. لم تكن تريد شرطة، لكنَّ إيفا تصرّ على حمايتها؛ ويُقلقها إلقاؤها الكلمات وسط الميادين.

كان العرق يسيل على ظهرها بعد تلك الساعتين من التنقل من مكان إلي آخر. لم تُلق خطاباتها قطّ من وراء حواجز، وبأسلوبها الشبيه بأسلوب مغنيات الروك في الحفلات الموسيقية – بالأسود السابغ وبجزمة عالية ـ كسرت تقليد السياسيين الذكور القدماء الذين كانوا يحتمون، علي الدوام، وراء مناضد وحواجز أمامية. أما هي، فلا. إنها تريد أن يلمس الناس وجودها بالقرب منهم، وأنه يمكن لهم الوصول إليها.

منذ توليها المنصب كرئيسة لفاغواس، بل قبل ذلك، منذ حملتها الانتخابية، كانت تتكلم علي الدوام وهي وسط الحشود، ممسكة الميكرفون بيدها، وقد صرحتْ بأن الدائرة هي احتضان، وأن الكلمة السحرية لإدارتها هي "اتصال"؛ الجميع على اتصال: تلامس متبادل، إحساس متبادل. الدائرة هي المساواة، هي المشاركة، هي البطن الأمومي.. الأنثوي. الرمز يؤكد إيمانها

بقيمة الإدراك والإحساس بالقلب وليس بالعقل وحده. وكانت هذه هي صرختها التي طبعت بها سياسة البلاد، وأتاحت لها أن تُحاط بدفء الآخرين، هذا الدفء الذي يجعلها تتعرق تحت الشمس البديعة في ذلك النهار الآخذ بالانطفاء.

واصلت بيبيانا جولتها عبر المنصة الدائرية. لقد كانت تتمتع، وهي في الأربعين من عمرها، ببنية جسديه تُحسد عليها: جسد سَبَّاحة أسمر فاتح اللون ومتين البنيان، وشعر أفريقي أسود مجعد يصل حتي كتفيها - إرث الأب الخلاسي الذي لم تعرفه قطّ - ووجه أمها النحيل ذو التقاطيع الناعمة، ولكن بعينين واسعتين سوداوين، وفم بشفتين ممتلئتين حسيتين. في ذلك اليوم، كانت بيبيانا ترتدي بلوزة سوداء بفتحة عنق عميقة يبرز من خلالها الثديان الوافران اللذان لم تعترف بفائدتهما إلا عندما دخلت ميدان السياسة. ففي مراهقتها أزعجها حجمهما إلي حدّ أنها راحت تمارس رياضة السباحة حين انتبهت إلي أن جميع السبَّاحات ملساوات الصدور، مثل منضدة الكواء. ولكنها، علي الرغم من أنها لمعت في مآثرها المائية، وتوصلت إلى أن تكون بطلة وطنية في السباحة، إلا أنها لم تكد تُحدثُ تأثيرًا يذكر علي الحدّ من النمو المندفع لثدييها الشهيرين. ولم يبق أمامها في نهاية المطاف سوي احتضان أبعادهما السخية وتقبلهما، وانتهت إلي التفكير بأنه عليها الاحتفاء بهما وتحويلهما إلى مرادف لالتزامها بأن تقدم لشعب تلك البلاد أنهار الحليب والعسل التي ضنَّ بها عليهم سوء إدارة الرجال.

في بعض الأحيان كانت تلوم استعراضيتها تلك، ولكنها استعراضية مجدية ولها مفعولها. وهي لن تكون أول ولا آخر امرأة تكتشف مفعول التنويم

المغناطيسي الذي يمارسه جسد مترف بالشهوانية.

بعد أن أكملت، راكضة، ثلاث جولات دوران أخرى على محيط المنصة الدائرية، متوقفة بين حين وآخر لترفع ذراعيها في إشارة نصر، قررت بيبيانا أن ذلك كافٍ. الإحساس بالانتصار يبعث على النشوة، لكنها كانت متعبة ولا تريد المبالغة. فكَّرتْ: كفى عبادة للذات. فمن الخطير، برأيها، زيادة تغذية عبادة الناس لها. منذ البدء أصرت مارتينا، وإيفا، وربيكا، وإيفيجنيا على وجوب أن تركب موجة التأثير المغناطيسي الذي تمارسه على الحشود. وهي تتولى القيام بذلك الطقس مرة بعد أخرى؛ تحمل الجماهير إلي فورة الحماسة، ولكنها تشعر بعد ذلك بدافع أمومي يدفعها إلي تهدئتهم، وتضطر إلى كبح رغبتها في أن تغني لهم أغنيات مهد أو أن تروي لهم حكايات، مثلما تفعل مع ابنتها بعد جولة صخب جيدة بتراكضهما عبر البيت والصراخ والدغدغة والتقلب؛ فعندما كانت سيليستي صغيرة، كانت قادرة علي تهدئتها دومًا إلى أن تخلفها نعسة، وجاهزة لتنظيف أسنانها وارتداء البيجاما. لا يمكنها استخدام الأسلوب نفسه مع الحشود، ولكنها تحاول أساليب أخري: تُبدِّل الإيقاع، تسترخي، تدخل في مشي هادئ، تهز ذراعيها بنعومة، المشي ببطء، ثم بمزيد من البطء، حول الدائرة. وجهت إشارات إلى رفيقاتها في حزب اليسار الإيروتيكي، ممن بدأن معها فكرة ذلك الحزب، كي يصعدن إلى المنصة ويمشين جميعهن معًا ممسكات بأيدي بعضهن بعضًا كفرقة مسرحية عند انتهاء العرض. يروقها أن يشعرن أنهن محبوبات، وأن يستمتعن بانتصار ينتمي إليهن بالتساوي. إيفا سلفاتييرا، مارتينا ميليننديث، ريبيكا دي لوس ريوس، وإيفيخنيا بورتا كن نساء جذابات أيضًا ونابضات بالحيوية. فإيفا

حمراء الشعر، ضئيلة، مع نمش علي خديها، ولها صوت أغنّ، فيه شيء من المراهقة الخفيفة، خلافًا لفعاليته القاتلة.

أما مارتينا فشقراء كستنائية، أقرب إلى الامتلاء منها إلى النحافة، شعرها أملس، وقد ولدت مزودة بموهبة حس السخرية الخالي من الاحترام. عيناها الصغيرتان والقاتمتان تضعان كل شيء تقريبًا موضع الشك منذ البدء. أما ريبيكا دي لوس ريوس، فطويلة القامة، سمراء، رشيقة مثل قصبة، كما قالت دونيا كورين تيبادو، إنها جمال قاتم وغامض، ولها القوام الأكثر أناقة ورهافة بينهن جميعًا. وإيفيخنيا، إيفي، نحيلة، بوجه متطاول وأنف بارز؛ جميعهن يحببنها لأنها تشبه فيرجينيا وولف.

تعالى إيقاع التصفيق للحظات، لكنه مالبث أن راح يخفت مع بدء بيبيانا التكلم ببطء: جميعنا سنذهب الآن إلى البيوت، قالتها عبر الميكروفون بعذوبة، كمن تهمس الكلمات، باسمة، ومكررة: شكرًا، شكرًا، كدعاء، كتعويذة تتيح لها هي نفسها تقبُّل الذهول البهيج بأن كثيرين قد منحوا ثقتهم لها ولحكومتها.

عند هذه النقطة، تبدأ حماسة الجمهور بالانخفاض عادة، فهي تخرج من الصدور والحناجر والأفواه كروحٍ منهوكة، لتتحلل وتذوب في هواء نهاية الاحتفال. وكانت الرئيسة قد اعتادت على مراقبة العملية بافتتان: النشاط المتراكم وهو يتضاءل ويختفي في الأجساد مثل دفق ماء مسكوب يضيع في الزوايا، بينما الحشود المتراصة تنفرج مثل يدٍ ممدودة مودعة.

ولكن ذلك اليوم مازال يحتفظ بمفاجأة مع ذلك: ألعاب نارية مهداة من سفيرة الصين. سُمعت الفرقعة الأولى بعيدة. توقفت الحشود عن المغادرة.

مظلة أضواء وردية مشتعلة راحت تنزل ببطء من السماء فوق الميدان، تلاها شلال بتلات بيضاء وثُريات خضراء، وندف ثلج زرقاء، ومجسات صفراء مضيئة. ارتفعت الوجوه كلها لترى البريق المبهر بينما راحت الهتافات تتعالى من الحناجر. ابتسمت بيبيانا. إنها تحب الألعاب النارية. كانت إيفا، وزيرة الأمن والدفاع، قد اقترحت عليها النزول، هي والأخريات، عن المنصة والانسحاب لمشاهدة الأضواء من مكان أكثر أمنًا، لكن بيبيانا لم تتحرك من مكانها، وقفت مبهورة بالضوء وبتأثير السماء المشتعلة فوق وجوه تلك الحشود التي انتقلت فجأة إلى دهشة الخوارق الطفولية، وفي نسيانها لدورها كبطلة ذلك الاستعراض، ومع عودة انتظام تدفق الأدرينالين في سلوكها العام، تمكنت في لحظة الراحة تلك أن تمعن النظر إلى رجل تغطي رأسه قبعة زرقاء، كقبعات سائقي الشاحنات، يشق طريقه وسط الحشود.

رأته يقترب، وعندما رفع ذراعيه من مسافة قريبة كمن يريد أن يخلع بلوزة عبر رأسه؛ أدركتْ حقيقة نواياه بعد فوات الأوان. لم تسمع صوت الطلقة، غير أن سخونة لزجة صفعتها بقوة شديدة في صدرها وفي جبهتها، أفقدتها التوازن. سقطت إلى الوراء دون مناص، هوت بكل طولها، وقد تمكنت مع ذلك من سماع جلبة الصراخ التي تعالت حولها. رأت رجلًا نحيلاً، يضع قبعة أيضًا، له وجه سامريٍّ طيب، ينحني فوقها. ومنكسرة في السائل اللامع الزلق الذي أحست أنها تغطس فيه ببطء، رأت وجوه إيفا ومارتينا وريبيكا كانعكاسات تطل على بُركة راكدة. وعندما سمعتْ صفارات سيارات الإسعاف النائحة، كانت أفكارها، كما لو أن أحدهم قد فتح لها شركًا لتهوي منسكبة في صمت شامل.

جوارب وردية

بقلم / ديانى. إى. ديس(*)

رأيت أخي أمس..

كان يرتدي جوارب وردية ضيقة، وتنورة إرجوانية ذات نجوم فضية وكشكشات، وكان يرفع يديه عاليا راسما بها علامة النصر مع ضابط شرطة أشقر، شفتاه معوجتان مع ميل للوقاحة مثلما كان يتعرض لمشكلة ما ونحن صغار، وكانت قدمه اليسرى متجهة إلى الداخل قليلًا كعادته التي لم يستطع أن يتخلى عنها أبدًا.

كنت أشاهد على محطة الـ (سى.إن.إن) فيلمًا وثائقيًا عن زواج المثليين في مدينة سان فرانسيسكو وقد مرت فترة من الوقت قبل أن أدرك أنَّني قد تحكمت في نفسي، فمي نصف مفتوح، لقد كان داني على أية حال يخطف الكاميرا، على الرغم من أنه كان قد فقد وسامته تمامًا، حتى وهو يرتدي التنورة، بعينيه الرخاميتين الزرقاوين وشعره الأسمر الثقيل.

لم أكن قد رأيته من خمس أو ست سنوات، وليس منذ انتقل لأول مرة إلى كاليفورنيا "يجب أن تحضري إلى هنا وتبقين معي" كان يقول لي ذلك عبر الهاتف أو في رسالة عارضة، لكنه أبدًا لم يصدر في ذلك عن دعوة قوية أو

(*) ديانى إى. ديس: كاتبة وطبيبة نفسية تعيش في جنوب لوسيانا، بالولايات المتحدة الأمريكية؛ لها مقالات، وتحليلات سياسية منشورة في عدة مطبوعات.

حتى يثير الموضوع خلال الإجازات القليلة.

لم نكن أنا وداني متقاربين بشكل خاص، كان عمره تسع سنوات عندما ولدت، وسافر إلى الكلية في الوقت الذى كنت في حاجة فيه إلى أخٍ كبير. مازلت أحبه، ودائمًا كنت فخورة جدًا به، حيث أقول للناس أن له نظرة شاب جميل الشكل مع ابتسامة وقحة.

والآن هنا، عاد لي عبر أعجوبة التليفزيون ولحسن الحظ على شريط الأخبار البطيء على الشاشة اليوم. اتصلت بأمي وقلت لها افتحي محطة ال (سى. إن. إن) لأنني أتصور أنهم سيعرضون الخبر ببطء لخمس أو ست مرات قبل انتهاء اليوم.

قلت لها:

– شاهدي خبر عرس المثليين.

قلت ذلك وأنا أحاول إخفاء الإضراب في صوتي، ثم أضفت:

– في سان فرانسيسكو داني هناك. لقد رأيته.. لقد رأيته وهو جميل يا ماما، جميل حقًا.

سمعت أمي وهى تأخذً نفسًا طويلًا:

– ليس داني الذي رأيته يا عزيزتي

– إنه داني، إنه يرتدي تنورة.

– لا تكوني سخيفة يا مولى، لماذا يرتدي تنورة؟

– ماما، داني مثلي، أعتقد أنه ربما يكون شاذًا، ولكنني لم أسأله أبدًا عن ذلك، هل أخبرتيني أن ذلك لا يتفق مع رأيك؟

– مولي.. أنتِ تقولين كلامًا فارغًا.. أنا لا أريد...

– أنا قادمة إليك حالًا.

خلال قيادتي القصيرة إلى منزل أمي، فكرت في كل الأشياء، التي قالها لي داني وأنا في صحبته، لم يشر أبدًا أن له خليلة، وعندما سألته عن ذلك قال لي أنه مشغول جدًا، كان يتجنبنا أثناء حفلات أعياد الكريسماس، ثم انتقل إلى سان فرانسيسكو دون أن يحصل على وظيفة. عندما دخلت منزل أمي، كانت تعد الشاي، وتصبه في أكواب صينية رقيقة مطبوع عليها زهور الليلك وورود حمراء، عيناها نسخة شاحبة من عين داني البراقتين، يبدوان غير مركزتين على شيء، كما لو كنت تنظر بهما إلى شخص ما يقف خلفي.

– لماذا لم يحدثنا داني عن حياته؟

سألتها عندما كنا نجلس سويًا على الأريكة الكبيرة في غرف المعيشة. قلبت الشاي في كوبها باهتمام شديد، متحينة اللحظة التي تتحدث فيها. عندئذ منحتني نظرة أخرى خاوية.

– مولي أخوك ليس مثلك، إنه يحتفظ بأسراره لنفسه، كان دائمًا له أسلوبه الخاص؛ القراءة أو جمع العملات المعدنية أو الاستماع إلى الموسيقى.

– إنك تجعلينه بهذا ليس له أي أصدقاء، ولكنني أعرف أنه له أصدقاء، لقد أحببت أصدقاءه.

– بالطبع له أصدقاء، أنا حقًا أقصد أنه كان أكثر ميل إلى الوحدة منك، لم ينجح أبدًا مع الحشد.

– هل تحدث أبي مطلقًا إلى داني؟

– لا أعرف ماذا يفعل أبوك؟ لم يتحدث إلي حتى، لم يفعل ذلك حتى عندما كنا مازلنا متزوجين.

نهضت وفتحت التليفزيون على محطة الـ سى. إن. إن، كانت مقدمة الأخبار تتحدث في رتابة عن التعيينات القضائية وعناوين بارزة تجري بسرعة مثل شخصيات ميلودراما بيت الدمية ذات الملابس المتوهجة. في تلك اللحظة كان داني متألقًا على الشاشة وسط ألوان شموع عيد الميلاد وكان محاطًا بمجموعات من الراقصين وسط أقدام الراهبات.

ارتجف جسد أمي واهتزت يديها لذلك توقعت أن شايها سيقسط على ثوبها الأبيض ذي النسيج المتموج، فتحت فمها وأخذ وجهها يأخذ ملامح شخص يشاهد فعل مدهش للطبيعة، ولم يعد قادرًا على وصفة بأية طريقة.

– إنه جميل!

هذا كل ما أمكنني قوله، لأنه كان كذلك بالفعل، في بعض الأحيان هناك أشياء تحدث في لحظة ما عندما ترى شخصًا ما موجهًا كل طاقته الداخلية، جوهره نحو هدف معين. خلال تلك اللحظة يتوهج الشخص تقريبًا بقوة هذه الطاقة، ذلك هو ما رأيته عندما رأيت أخي على الشاشة. على الرغم من أنه كان مجرد صورة إلكترونية وصلت إلى منزل أمي عبر تكنولوجيا الاتصال، فإنه بدا لي معبرًا عن نفسه أكثر من السنوات التي عرفته فيها.

على العكس كانت أمي قد شحبت تمامًا، استرخى كتفاها، وصار الوهج في عينيها كثيفًا، مثل الصقيع على النوافذ الزرقاء، سألتني في صوت شديد الهدوء:

– كيف يمكنك أن تقول أنه جميل؟

ثم أضافت:

– إنه يجعل من نفسه أغبى شخص في جميع العالم لقد توسلت إليه ألا يذهب. توسلت إليه.

– هل كنت تعرفين أنه سيظهر على التليفزيون؟

– بالطبع لا. لقد توسلت إليه ألا يذهب إلى سان فرانسيسكو، كنت أعلم أن ذلك سوف يحدث. كان لديه الفرصة لكي يكون إنسانًا طبيعيًا، لكنه ذهب إلى هناك بدلًا من ذلك.

– هل تحدث إليك عن هذا؟

رفعت كوبها إلى شفتيها المفتوحتين قليلًا، كما لو كانت تشارك في مراسم شاي شرير.

– كان له صديق، تعرفين، شخص ما كان يعيش معه وكان يريد أن يأتي به إلى هنا في الكريسماس. كان ذلك منذ عدة سنوات، بالطبع قلت له لا.

– لماذا؟ لماذا فعلت ذلك؟

سمعت قسوة في صوتي غطت على صوت مقدمة البرنامج التي نافس صوتها وقت سقوط الرويل في أفغانستان، أخذت نفسًا عميقًا وقلت:

- ألا تريدين أن يكون دابي سعيدًا؟

- سعيدًا! في تنورة؟

مرت أمي بأصابعها على زهور الليلك المطبوعة على ثوبها، وكان عيناها الجامدتان مثل بوابتين شاحبتين تمنعان الأفكار والمشاعر التي لم أستطع الوصول إليها أبدًا.

تركت أمي مع شايها وعدت إلى المنزل لكي أحجز تذكرة إلى سان فرانسيسكو.

الشاعر ..

بقلم / روز جوين(*)

رجل..كان رسامًا، اسمه جون..كانت لديه مشاكل مع السناجب في مسكنه، ثمة عدد كبير من السناجب على غير العادة تملأ المنزل، أتلفت زهرات النرجس في الحديقة وقضمت التفاحات من فوق الأشجار، ودمرت لفة من الكنفاه الخام في الأستوديو، كان جون خائفًا أن تدخل السناجب الحوائط وتمضغ الأسلاك التي بداخلها، لذلك نصب لها المصائد في الخارج لكن المصائد لم تقتلها، عندما استطاع أن يمسك سنجابا أخذه إلى الغابة الوطنية على بعد عدة أميال من المنزل، ثم أطلقه هناك.

ذات ظهيرة زارته سارة ابنة أخيه، وكان معها صديقها الجديد، قالت:

– أنت وميشيل يشبه كل منكما الآخر.

ثم أضافت:

– ميشيل شاعر

أخذ جون الاثنين إلى داخل الأستوديو ليريهما لوحته الجديدة، قال:

– إنها تمثل سلسلة في تحولاتي.

(*) روز جوين، كاتبة أمريكية ولدت في بريكيلي عام ١٩٧٣ وتعيش الآن في بوسطن، نشرت معظم أعمالها على شبكة الأنترنت وفي المجلات الأمريكية المطبوعة المشهورة مثل مجلة "الشعر الأمريكي".

عرض عليهما لوحة دينية ثلاثية: ٣×٦ قدم مربع من الكنافاه، تصور مجموعة من ثمار الأجاص في مراحل مختلفة من التعفن، ثم أضاف:

– أنا مهتم برحلة الزمن.. يمكنك أن ترى ذلك مع هذه اللوحة، أو يمكنك أن تستخدم ذلك لوصف وجهات النظر المختلفة في لحظة واحدة، إنه تركيب مفيد.

أومأ ميشيل موافقًا، وقالت سارة:

– إنما تمثل نوعًا غريبًا.. طريقة الأجاص وهي ترتخي وتسقط.

– بعد ذلك أريد أن أكتشف القشرة.

عرض عليها لوحة كنافاه أخذت عرض الحائط، مليئة بصورة لليمونة متعفنة.

– تذكارية.. أليس كذلك؟

ضحكت سارة وتراجع ميشيل للخلف، ذراعاه متصلبان فوق صدره، وهو يتلفت برأسه من جانب إلى آخر.أحدث لوحة كانت صغيرة جدًا، صورة مصغرة جدًا لثعبان مفرود كان جون قد وجده على جانب الطريق.

قال جون:

– في فرنسا.. لا يقولون صور للأزهار والأشياء، ولكن يقولون طبيعة مجسدة، طبيعة متينة ذلك ما أنا مهتم به الآن حقًا، موت الطبيعة، تغير الألوان البني والأشغال للنماذج العضوية، السقوط والرشح والانتفاخ نتوء العفن والجفاف.

دعا جون سارة وميشيل للتجول في الفناء لفحص المصيدة، وقبل العشاء أمسك سنجابًا من خلف كوم السباخ العضوي.. وعند ذلك قال:

– إنهم مثل زبدة فول السوداني.

ثم حمل المصيدة إلى داخل المنزل وهناك نصبها في الجراج بجوار برميل المطر، فرد السنجاب نفسه في قاع القفص دون مقاومة.

أثناء العشاء، قالت سارة لجون:

– أحب لوحاتك الجديدة يا عمي.

– شكرًا لك، وأنت يا ميشيل ما رأيك؟

– إنها جميلة ومرعبة.

قالت سارة:

– ولكنها ليست سقيمة.

قال جون:

– إنها جزء من الحياة، إنها تعبر جميعًا عن التغيرات.

بعد العشاء، اعتذر ميشيل وانسل إلى الخارج، عند ذلك قالت سارة:

– أكيد يريد أن يحضر شيئًا ما من السيارة

شرب جون وسارة القهوة، قالت سارة:

– هل أحببته؟

– إنه هادئ.

عاد ميشيل إلى المنزل، صاح جون:

– أتشرب قهوة يا ميشيل؟

دخل ميشيل حجرة الطعام وهو ممسك معطفه أمامه متكورًا يقطر منه الماء.

قالت سارة في انزعاج:

– ما الخطب؟

– إنه بسبب جون.. السنجاب.. لقد أغرقته في برميل المطر.

حكاية الرجل الذي حلق مثل طائر

بقلم / سفتيلانا ألكسيفيتش(*)

إيفان ماشوفيتس، طالب الدراسات العليا بقسم الفلسفة من تقرير صديقه فلاديمير ستانكفيتش، طالب الدراسات العليا بقسم الفلسفة.

.. أراد أن يرحل دون أن يلاحظ،كان الوقت مساء، وقت الشفق. لكن الكثير من الطلاب في المسكن المجاور رأوه وهو يقفز. فتح نافذته على اتساعها، وقف على عتبة النافذة ونظر إلى أسفل لفترة طويلة، ثم استدار واندفع بقوة وطار.. طار من الطابق الثاني عشر..

امرأة مارة ومعها ابنها الصغير.تطلع الصغير إلى أعلى:

– ماما، أنظري الرجل يحلق في الهواء مثل الطائر..

(*) ولدت سفيتلانا ألكسيفيتش فى٣١مايو عام ١٩٤٨ في بلدة ستانسيلاف في غرب أوكرانيا لأب من بيلاروسيا وأم أوكرانية، وتربت في روسيا البيضاء. بعد انتهاء الدراسة عملت صحفية في عدد من الصحف المحلية قبل أن تتخرج في جامعة ولاية بلاروسيا عام ١٩٧٢، ثم صارت مراسلة لمجلة نيمان الأدبية في مينسك عام ١٩٧٦. واصلت سفيتلانا ألكسيفيتش مهنة الصحافة والكتابة السردية من خلال المقابلات مع شهود العيان عن الأحداث الأكثر إثارة في البلاد مثل: الحرب العالمية الثانية، والحرب الروسية الأفغانية، وسقوط الاتحاد السوڤيتى، وكارثة مفاعل تشيرنوبيل؛ وبعد الاضطهاد من قبل نظام لوكاشينكو، رحلت عن بيلاروسيا عام ٢٠٠٠. وخلال العقد التالي من ٢٠٠٠ إلى ٢٠١١ عاشت متنقلة بين باريس وجوتنبرج وبرلين ودول أخرى، وفي عام ٢٠١١ عادت إلى مينسك، وبخلاف جائزة نوبل حصلت على عشر جوائز أدبية،كان آخرها قبل نوبل عام ٢٠١٣.

حلق لمدة خمس ثوانٍ..

أخبرني بكل ذلك ضابط شرطة المنطقة عندما عدت إلى السكن، كنت أنا الشخص الوحيد الذى يمكن أن يطلق عليه صديقه، بكل ما تعنيه الكلمة. في اليوم التالي رأيت صورته في الصحيفة المسائية:

"كان يرقد على وجهه فوق الرصيف.. في وضع الرجل الطائر".

يمكني أن أحاول وضع ذلك في كلمات قليلة..على الرغم من أن كل شيء انزلق بعيدًا.. فلا أنت ولا أنا يمكنه أن يستوعب هذه المتاهة.. سيكون التفسير جزئيًا، تفسيرًا ماديًا، وليس تفسيرًا روحيًا. على سبيل المثال، هناك شيء يسمى خط الاتصال الموثوق به، فثمة شخص يتصل ويقول:

" أريد أن أنتحر" وفي خمس عشرة دقيقة يقومون بإنقاذه. يكتشفون السبب، لكنه ليس في الواقع هو السبب، إنه الزناد..

قبل يوم واحد من الآن رآني في القاعة.

"من المؤكد أنك ستأتي. يجب أن نتكلم"

في ذلك المساء طرقت على بابه عده مرات، لكنه لم يفتح. استطعت من خلال الحائط أن أسمع أنه موجود هناك (غرفتانا متجاورتان) كان يتمشى ذهابًا وإيابًا. "حسنا" فكرت "سأمر عليه في الغد" وفي الغد كلمتني الشرطة.

"ما هذا؟" أراني الشرطي مجلدًا بدا لي مألوفًا إلى حد ما.

انحنيت فوق الطاولة:

"إنها أطروحته العلمية، هذه صفحة العنوان: "الماركسية والدين" كل

الصفحات مصلب عليها عرضياً بقلم رصاص أحمر، مكتوب عليها في عنف: "هراء، ثرثرة، أكاذيب!" كان ذلك بخط يده.. تعرفت عليه..

كان يخاف دائمًا من الماء.. أتذكر ذلك منذ أيام الكلية، لكنه لم يقل أبدًا أنه كان يخاف من المرتفعات..

لم يكن موفقًا في أطروحته. حسنًا، فليذهب بها إلى الجحيم! يجب أن تعترف أنك كنت أسير مدينة فاضلة.. لماذا القفز من الثاني عشر بسبب ذلك؟ في هذه الأيام كم من الناس يعيدون كتابة محاولتهم الأصلية، أطروحتهم للدكتوراه، وكم من الناس يخشون أن يتقبلوا ذلك العنوان؟ إنه أمر محرج وغير مريح.. ربما قرر: سأتخلص من تلك الملابس وهذا الهيكل الجسدي.

لا يمكن للمنطق السلوكي أن يقود إلى هذا، لكن تم ارتكاب الفعل مع ذلك.. هناك مفهوم للقدر. قد منحت طريقاً لاتباعه.. عليك أن تصعد إليه..أمامك أحد الأمرين: تصعد أو تسقط.. أعتقد أنه يؤمن بوجود حياة أخرى.. في طبقة رقيقة.. هل كان متدنياً؟ من هذا الموضع تبدأ التكهنات.. لو كان يؤمن، فقد كان ذلك من دون وسطاء، ومن دون منظمات مرشدة، ومن دون أية طقوس. لكن الانتحار مستحيل مع شخص متدين، فهو لا يجرؤ على انتهاك حدود الله.. قطع الخيط.. فآلة الزناد تعمل بشكل أسهل بكثير مع غير المؤمنين. إنهم لا يؤمنون بوجود حياة أخرى، ومن ثم لا يخشون مما قد يحدث. ما الفرق بين سبعين سنة أو مائة سنة؟ إنها محض لحظة، حبة رمل، جزيء من الزمن...

تكلمنا معا ذات مرة عن الاشتراكية وإنه لا يوجد حل لمشكلة الموت، أو على الأقل في التقدم في العمر. إنها فقط تحوم حول ذلك..

رأيته وهو يتعرف على رجل مجنون في محل لبيع الكتب المستعملة. كان هذا الرجل أيضاً، يفتش في الكتب القديمة عن الماركسية، كما كنا نفعل. وبعد ذلك قال لي:

"أتعرف ما قاله لي؟ أنا شخص، لكنك أنت الذي يعاني، وتعرف إنه على حق "؟

أعتقد أنه كان ماركسياً مخلصاً ورأى الماركسية فكرة إنسانية، حيث "نحن" تعني أكثر كثيرًا من "أنا" مثل نوع من الحضارة الكونية الموحدة في المستقبل.. عندما تمر بغرفته سيكون راقدًا هناك، وهو محاط بالكتب لـ: ماركس، سيرة هتلر الذاتية، ستالين، قصص هانز كريستين أندرسون، بونين، الكتاب المقدس، القرآن الكريم. كان يقرأ كل ذلك في وقت واحدٍ. أتذكر شذرات من أفكاره، لكنها فقط شذرات. سأعود إليها بعد ذلك.. أحاول أن أجد معنى ما لموته.. لا عذر، لا سبب.. مؤكد! في كلماته..

"ما الفرق بين الباحث والكاهن؟ يحاول الكاهن أن يعرف المجهول من خلال الإيمان. لكن الباحث يحاول أنا يفهم ذلك من خلال الحقائق، من خلال المعرفة. المعرفة هى العقلانية. لكن دعنا نأخذ مسألة الموت، على سبيل المثال. فقط الموت. الموت يتجاوز الفكر.

لقد اتخذنا نحن – الماركسيين – دور كهنة الكنيسة، تقول إننا نعرف الإجابة على السؤال: كيف تجعل الجميع سعداء؟ كيف؟ كان كتابي المفضل

في مرحلة الطفولة هو "الإنسان البرمائي" للمؤلف: أيه. بيليايف وقد أعدت قراءته مؤخرًا. إنه رد على كل الطوباويين في العالم.. الأب يحول ابنه إلى إنسان برمائي. يريد أن يمنحه محيطات العالم. لكي يجعله سعيدًا عن طريق تغيير طبيعته البشرية. إنه مهندس رائع.. يعتقد الأب أنه قد كشف السر.. كما لو كان هو الله! لقد جعل من ابنه أتعس البشر.. لا تكشف الطبيعة عن نفسها للعقل البشري.. إنها فقط تغوى بذلك"

يوجد هنا عدد قليل الى حد ما من منولوجاته، كما أتذكرها، على الأقل.

"ظاهرة هتلر سوف تقلق الكثير من العقول لفترة طويلة قادمة تثيرهم. كيف؟ بعد كل ذلك الهوس الجماعي؟ الأمهات يمسكن بأطفالهن ويبكين هذا، القهر، خذوهم"

"نحن هم المستهلكون للماركسية. من يستطيع أن يقول أنه يعرف الماركسية؟ يعرف لينين، يعرف ماركس؟ هناك ماركس في البداية.. وماركس في نهاية حياته. التماثيل النصفية، الظلال، الإزهار المعقد كل ذلك مجهول بالنسبة لنا. لا أحد يمكنه أن يزيد من معرفتنا. نحن جميعاً مفسرون.

في الوقت الحالي نحن متمسكون بالماضي كما نفعل في التعلق بالمستقبل. كذلك اعتقدت أنني كرهت كل حياتي هذه، لكن اتضح أنني أحبها. أحب؟.. كيف يمكن لأى شخص أن يحب هذه البركة من الدماء؟ هذه المقبرة؟ يا للقذارة! يالها من كوابيس.. كيف يختلط الدم بكل ذلك.. ومع ذلك أحب ذلك!

"اقترحت على أستاذي موضوع أطروحة علمية جديدة، الاشتراكية

باعتبارها غلطة عقلية" فكانت إجابته: "هراء" كما لو كنت أستطيع حل شفرة الكتاب المقدس أو نهاية العالم بنفس القدر من النجاح. حسناً، الهراء شكل من أشكال الإبداع أيضاً... ارتبك الرجل العجوز. أنت تعرفه بنفسك.. إنه ليس واحدًا من هؤلاء الضراط العجائز، لكن بالنسبة له، كل شيء حدث كما لو كان مأساة شخصية. كان ينبغي أن أعيد كتابة أطروحتي، لكن كيف يمكن أن أعيد كتابة حياته هو؟ في الواقع الآن كل منا ينبغي أن يعيد تأهيل نفسه. هناك أمراض عقلية – متعددة، أو مفككة، اضطراب في الشخصية، الناس الذين ينسون أسماءهم ومواقفهم الاجتماعية وأصدقاءهم وينسون حتى أطفالهم، وحياتهم. إنه فناء للشخصية.. فعندما لا يستطيع الفرد الجمع بين الأخذ الرسمي أو الاعتقاد الحكومي، ووجهة نظرة وشكوكه.. مدى صحة ما يعتقده، ومدى صحة ما يقوله. تنقسم الشخصية إلى جزأين أو ثلاثة أجزاء.. هناك العديد من مدرسي التاريخ والأساتذة في مستشفيات الأمراض النفسية.. يفضل لو كانوا قد رسخوا شيئاً ما، أفضل من الانحراف. على أقل تقدير ثلاثة أجيال.. وعدد قليل من الآخرين الذين فسدوا.. كيف أن كل شيء غامض يفتقد إلى التحديد.. إغراء المدينة الفاضلةً..

"خذ جاك لندن.. أتتذكر قصته عن كيف تعيش حياتك حتى لو كنت في الأغلال؟ عليك فقط أن تخشوشن، تغرق، ثم تعتاد على ذلك.. وسيكون عليك حتى أن تكون قادراً على الحلم.."

الآن أحلل ما قاله.. متابعاً قطار فكره.. أستطيع أن أرى أنه كان يستعد للرحيل...

ذات مرة وكنا نشرب الشاي، فجأة، قال:

"أعرف كم ما تبقى لي من الوقت.."

صاحت زوجتي: "فانيا"، ما الذى تقوله؟

ثم أضافت "كنا حقا نعد أنفسنا لكي نزوجك"

"كنت أمزح، كما تعلمين، لا يمكن للحيوانات أن تقدم أبدًا على الانتحار. إنها لا تخرق الصف".

في اليوم التالي لهذه المحادثة وجدت مديرة السكن الجامعي في صندوق القمامة بدلة ذات ماركة جديدة، وجواز سفره في الجيب، جرت إلى غرفته. كان مرتبكًا وقد غمغم بشيء عن أنه كان في حالة سكر. لكنه لم يذق أبداً من فترة قطرة واحدة! احتفظ بجواز السفر، لكنه أعطاها البدلة قائلا "لن أحتاج إليها بعد ذلك".

لقد قرر أن يتخلص من هذه الملابس، من هذا الغشاء الجسدي، كان لديه الكثير من الدهاء، وفهم التفاصيل أكثر مما نتوقع، وهو في مثل عمر المسيح.

قد يعتقد المرء إنه قد أصيب بالجنون، لكن قبل بضعة أسابيع، سمعت عرضه للبحث.. منطق في سهولة الماء. دفاع رائع!

هل الشخص في حاجة حقًا لأن يعرف متى ينتهي أجله؟ ذات مرة عرفت رجلاً يعرف ذلك؟ صديق لوالدي. عندما أُرسل إلى الحرب، تنبأت له امرأة غجرية بأن عليه ألا يخاف من طلقات الرصاص لأنه لن يموت أثناء

الحرب، لكن في الثامن والخمسين وهو في البيت، وهو جالس في المقعد ذي الذراعين. لقد خاض غمار الحرب كلها، تعرض لإطلاق النار وكان معروفاً بالرفيق المتهور وقد تم إرساله إلى المهام شديدة الخطورة وكان يعود دون أن يخدش. وحتى سن السابعة والخمسين شرب ودخن منذ أن عرف أنه سيموت في الثامنة والخمسين وهكذا حتى ذلك الحين استطاع أن يعمل أي شيء، كان عامه الأخير مضطرباً.. كان خائفاً باستمرار من الموت.. وكان ينتظر.. ومات في سن الثامنة والخمسين في المنزل، في مقعد أمام التليفزيون.

هل من الأفضل للإنسان أن يحدد لنفسه خطًا مرسومًا؟ الحد بين هنا وهناك؟ وحيث من هنا تبدأ الأسئلة..

اقترحت عليه أن يفتش في ذكريات طفولته ورغباته، ما الذي كان يحلم به، ثم تخلى عنه. ويستطيع أن يحققه الآن.. لم يتحدث إليَّ أبداً عن طفولته. ثم فجأة انفتح. من الشهر الثالث من عمره وهو يعيش في الريف مع جده، وعندما صار أكبر قليلاً كان يود أن يقف على جذع شجرة وينتظر أمه. عادت ماما بعد انتهاء المدرسة، مع ثلاثة إخوة وأخت، كل طفلًا من رجل مختلف. درس حتى الجامعة، أبقى لنفسه عشر روبلات، وأرسل ما تبقى من راتبه إلى المنزل، إلى ماما.

"لا أتذكر أبدًا أنها قد غسلت أي شيء لي، ولا حتى منديل. لكنني في الصيف سأعود إلى الوطن.. سأطلى الجدران. وإذا قالت لي كلمة طيبة، سأكون سعيداً".

لم يكن له أبداً صديقة.

حضر أخوه إليه من الريف. كان في المشرحة.. بدأنا نبحث عن امرأة للمساعدة، لكي تغسله وتلبسه. هناك النساء اللاتي يفعلن هذا الشيء. عندما حضرت كانت ثملة. ألبسته بنفسي..

في القرية جلست وحدي معه طوال الليل. وسط الكبار من الرجال والنساء. لم يخف أخوه الحقيقة، ومع ذلك طلبت منه ألا يقول شيئًا، على الأقل لأمهما، لكنه كان في حالة سكر وأفشى كل شيء. ظلت السماء تمطر بغزارة لمدة يومين. في المقبرة كان لابد للجرار أن يجر السيارة بالنعش. رسمت النساء العجائز الصليب على صدورهن في خوف وحمية.

"ذهب ضد إرادة الله، لقد ارتكب إثما"

لم يسمح له الكاهن بالدفن في المقبرة: لقد ارتكب خطيئة لا تغتفر.. لكن وصل رئيس مجلس القرية في سيارة وأعطي له التصريح بالدفن.

رجعنا وقت الشفق. مبتلين ومحطمين في حالة سكر.

خطر لي أنه لسبب ما في الغالب يختار الرجال الأوفياء والحالمون هذه الأنواع من الأماكن. من هذا النوع فقط من المكان الذى ولدو فيه. كانت حواراتنا عن الماركسية باعتبارها حضارة عالمية موحدة في ذاكرتي. وعن المسيح باعتباره الاشتراكي الأول. وحول أن سر العقيدة الماركسية لم يكن مفهوماً تماماً لنا، على الرغم من أننا كنا غارقين حتى ركبنا في الدم.

جلس الجميع إلى المائدة. صبوا لي كأساً من الفودكا المحلية.. شربته على الفور.. بعد عام ذهبت أنا وزوجتي إلى المقابر مرة أخرى.. قالت زوجتي:

– "ليس هنا"..

ثم أضافت:

– عندما حضرنا في المرات السابقة لزيارته، هذه المرة مجرد شاهد لقبر. تذكر كيف كان يبتسم في الصور الفوتوغرافية؟

إذن لابد أن يكون قد تم نقل رفاته، للنساء أجهزة أكثر حساسية من الرجال، ولقد شعرت بذلك.

وكانت نفس المناظر الطبيعية. أما نحن فمبتلون محطمون في حالة سكر. أغدقت أمه علينا بالتفاح من أجل الرحلة. وقام قائد الجرار الثمل بتوصلينا إلى محطة الحافلات.

ترويض الكلب

بقلم / شاستا جرانت(*)

بدأت القصة كلها وانتهت في المطر، تقابلا في المقهى، كانت إيرين تجلس وحدها خلف المنضدة وكان ثمة رجل داخلًا إلى المقهى يحمل في يدهً كوبًا من القهوة ويمسك بسير جلدي في نهايته كلب. كان من الواضح أنه يبحث عن مكان خال، ولما كانت المقاعد كلها مشغولة، عرضت عليه إيرين أن يجلس معها، فهز رأسه موافقًا وجلس.

سألته إيرين:

– ما اسم كلبك؟

فقال:

– بوكلي.

وبعد تقديم كل منهما للآخر، تحدثا لفترة قليلة عندئذ أحبت إيرين جرس صوته الناعم، على الرغم من رجولته، كما أحبت طريقته في الحديث إلى كلبه – ليس طريقة الحديث إلى شخص كبير أو حتى إلى طفل – كان

(*) شاستا جرانتكاتبة قاصة أمريكية، حاصلة على درجة الماجسير في الكتابة الابداعية من كلية سارة لورانس عام ٢٠٠٥، تقوم بتدريس التأليف والكتابة الابداعية لأكثر من سبع سنوات في جامعة بول سيت، نشأت شاسا جرانت في نيوهامبشاير، وتعيش الآن بن سنغافورة وانديانابولس مع زوجها وابنها.

يعمل محاميًا، وذا يدين قويتين وابتسامة عفوية. فجأة شعرت إيرين أنها على وعي بكل ما قالت وكيف يمكن أن تقوله أو تفعل، فقالت أشياء تدل على المهارة في التعارف وتحركت برشاقة أكثر من المعتاد. فجأة تحركت سحب سوداء فوقهما منذرة بنزول المطر.

قال شاد:

– حسنًا إيرين، من الأفضل أن تدخلي قبل أن تبتلي، وسأنتهى بنفسي من تمشية بوكلى.

فقالت إيرين:

– أنا أحب المطر.. كما أننى لست مصنوعة من السكر.. لن أذوب.

ومع ذلك فالحقيقة أنها تكره المطر، يبدو أنها تريد أن تستمر في الحديث معه. كان القسم الأصعب في علاقتهما ذكرها أنها تحب المطر، أما فيما عدا ذلك فسهل، كان شاد جميلًا ولطيفًا، تمشيا طويلًا، وأمسك بيدها، ولم يبادر هو بسحبها أولًا، ولكنه لم يكن ضيق الصدر أو متعجرفًا أو مثاليًا أيضًا، فكان عندما يضحك يلتوي لسانه في فمه إلى أسفل وإلى أعلى بطريقة غريبة، تجعله يشبه السلحفاة، ومع ذلك أحبته. عندما حاصرهما المطر قمعت فطرتها الطبيعية فلم تدس ذقنها في صدرها وتجرى بعيدًا عن المطر، وعلى العكس من ذلك دفعت رأسها إلى الخلف وتركت المطر يصفع وجهها. وبهذا استطاعت أن تخبر شاد بطبيعتها الميالة للانطلاق والمرح.

ظلا يتقابلان لما يقرب من شهرين حتى سألها ذات يوم أن تقوم بترويض الكلب بعد الدوام، لأنه مرتبط بعمل ولن يستطيع العودة إلى المنزل إلا

متأخرًا، فقالت بحماس نعم لأنها تريد أن تبدو مثل كل صديقة مخلصة على استعداد للقيام بكل ما يطلب، وكانت قد أحبت الكلب، والذي كان كبيرًا ذا لون أسود وأذنين كبيرتين، ولكنه لم يكن ميالًا للعقها أو القفز عليها، مما زاد من تعلقها به.

قالت إيرين لزميلتها ساندرا وهى تعبر الصالة:

– سأقوم بترويض كلب شاد بعد الدوام.

– لماذا؟

تساءلت ساندرا بوجه خائف، ربما لأنها لم تهتم أبدًا بالأصدقاء أو الكلاب.

– لأنه ألح عليّ للقيام بذلك، عنده مؤتمر أو شيء كهذا. أنا مثارة جدًا، آمل أن يسلك سلوكًا جيدًا.

قالت ساندرا:

– من الكلب أم شاد؟

– الكلب.

أجابت إيرين قبل أن تكتشف أن ساندرا تسخر منها:

– هل تحبين أن نتناول غداءنا في محل البيتزا؟

– لا، لن أستطيع، سأصبغ شعري بعد الظهر.

عند الثالثة بدأت السماء تمطر مطراً خفيفاً، كانت إيرين وساندرا في

البوفية يشربان القهوة، ويتطلعان عبر النافذة.

سألت إيرين:

– أتعتقدين أن المطر سيتوقف على الخامسة.

– غير مؤكد.. يبدو أنه سيكون شديداً.

– بسبب هذا المطر من المحتمل أن يتصل شاد ليعرف إذا ما كنت سأقوم بترويض الكلب؟

– لا تعولي على هذا. لقد وافقت أن تقومي بترويض الكلب، ولا علاقة للطقس بذلك.

في الرابعة كانت إيرين تجلس في مكتب ساندرا، قالت:

– لا أكاد أصدق أنني سأقوم بعد ساعة بتمشية هذا الكلب الملعون.

– ماذا جرى؟ في الصباح كنت سعيدة جداً لأنك ستقومين بترويض الكلب، والآن صار الكلب ملعوناً!

– إنها تمطر وأنا أكره المطر، وفوق ذلك لابد أن أصبغ شعري وستفسد الصبغة إذا تعرض للبلل.

وكانت إيرين قد صبغت شعرها لتجعله أشقر، وشاد لا يعلم بذلك، فهو يعتقد أنها شقراء بطبيعتها.

قالت ساندرا:

– خذي معك مظلة.

– أوه.. هذا غير مفيد فيمكن وأنا أقوم بترويض الكلب أن يبتل شعري، لا يجب أن يعرف شاد أنني أصبغ شعري.

– إذن أخبريه أنك نسيت أن تقومي بترويض الكلب، متظاهرة أن الموعد غدًا، ولن يموت الكلب في هذه الحالة. ربما كان عليك أن تحضري معك وسادة احتياطية، تعلمين أن مثل هذه الوسائد تجعل الكلاب تتبول داخل المنزل.

– أتعتقدين أن الكلب يمكن أن يعمل ذلك؟

– في أسوأ الفروض.

ثم أضافت:

– وربما يمسك نفسه حتى يعود شاد إلى المنزل.

الساعة الآن الخامسة ومازالت السماء تمطر. تمطر كلمة غير دقيقة، إنها تصب المياه صبًا فينزل على شكل حبال إنها قوة حقيقة، دبرت إيرين خطت ظنت أنها ذكية. فذهبت إلى شقة شاد. مستخدمة المفتاح الذى أعطاه له شاد أول أمس وتساءلت إذا ما كان عليها أن تعود وتستمر في خطتها. يبدو على شقة شاد الذكاء والرجولة، فالأثاث كرومي اللون والمفروشات ذات لون أحمر قاتم والأرض خشبية لامعة، كما أن لديه خزانة مليئة بالبدل الثمينة مع أنه لا يلبس غير الكاكي أو الجينز. أما بوكلي فكان قلقًا ومثارًا في الداخل، كان يقفز في مكانه ولكنه على بعد أمتار فيها. قالت إيرين وهي تربت عليه:

– هاي.. بوكلي الصغير.

كان المطر يضرب النوافذ في غرفة المعيشة، وكانت ترى وميض البرق. عرضت الخطة على بوكلي، فهز ذيله فقط، فاعتبرت ذلك علامة على الموافقة، ذلك أنه كان في حالة توافق وثيق معها. شعرت إيرين بشكل عام أن بوكلي يحبها. وأنه لا يريد لشاد أن يعرف أنها امرأة سمراء. وكأن بوكلي قد أقسم على حفظ السر. شعرت إيرين بالقلق على نفسها وهي تتحدث إلى بوكلي بصوت مرتفع.

أسرعت ايرين ببوكلي إلى المطبخ حيث كان من الصعب البقاء عند الباب. قالت له اجلس فجلس. سحبت خرطوم الرش من الحوض وأشارت نحو الكلب. وقف وهز ذيله وكانت النتيجة أن الأرض صارت أكثر بللًا من الكلب. بعد ذلك حملته ووضعته في الحمام. أطلقت عليه الماء فقفز على الفور إلى خارج الحوض، لكنه كان قد ابتل بما فيه الكفاية ليبدو وكأنه كان في نزهة على الأقدام.أخذت منشفة مطوية بعناية من خزانة الملابس الكتانية، حيث كانت المناشف مرتبة في نظام دقيق ومكدسة حسب اللون. نشفت بوكلي ومسحت أرضية الحمام، ثم علقت المنشفة على قضيب ستارة الحمام، تمامًا كما رأت تشاد يقوم بذلك بعد نزهة للكلب تحت المطر. ثم قدمت إليه الماء العذب والغداء والعلاج في اللحظة الأخيرة، ولكي تكون أكثر تعاونًا كتبت رسالة لتشاد بأن بوكلي قد تصرف بشكل جيد جدًا، وقد حاولت أن تجففه بعد المشي تحت المطر بأفضل ما تستطيع. وأنها ستعود في الثامنة كما هو مخطط لكي تتناول العشاء.

في السابعة والخمس والخمسين دقيقة طرقت إيرين على باب شقة شاد. فكرت للحظة في استخدام مفتاحها، ثم قررت أن تفعل العكس. فتح شاد الباب وكان وجهه موردًا.

– مرحبا

مشي داخل إلى الشقة، نظر إليها بوجه خال من التعبير، عيناه باردتان، وليست ممتلئة بالبهجة كالمعتاد، سألته:

– هل كل شيء على مايرام؟

– لا أعرف أنت أدرى. قولي أنتِ.

شعرت بضيق في صدرها وسرعة في دقات قلبها.

– ماذا تقصد؟

– هل أخذت بوكلي للترويض اليوم؟

– بالطبع أخذته؟ ألم ترَ الرسالة؟

– حسناً، إذا كنت قد أخذتيه للترويض كما قلت. لماذا يتبول ويتبرز في جميع أنحاء سريري؟

وقفت أيرين جامدة وفمها مفتوح على اتساعه. لقد ظنت حقًا أن الكلب استطاع أنا يتحكم في نفسه حتى يصل شاد إلى البيت ويأخذه للخارج مرة أخرى. رأيت آخر شهرين من الأحداث تومض أمام عينيها في سلسلة من الصور المتحركة المتداخلة التي جعلتها تشعر بالدوار والغثيان. رأت إيرين كمال شاد ونقصها. كانت قد تحققت من أحمر الشفاه وهي

تصعد السلالم لشقته. سوت الكسرات في تنورتها قبل أن يفتح لها الباب، وهي تحلم بأشياء بارعة وذكية تقولها، ثم تحاول أن تفتعل الحوارات لكي تدخل فيها العبارات. الكتب المقروءة والمقالات التي لم تكن مهتمة بها، لكنها اعتقدت أنها يمكن أن تحوز على إعجابه، وملابس شاد التي لم تكن أبداً مكرمشة والذي قال أشياء ظريفة تحلى بروح الدعابة بدون تكلف. رأت كل هذا بينما فمها مفتوح ثم انطلقت تتكلم دون تحكم.

– أنا أكره المطر! أنت وشأنك. أوكيه؟ أنا أكره المطر وأنا أصبغ شعري. وأنا لست في الحقيقة شقراء.. هكذا الأمر. تلك هي الحقيقة.. أكره المطر ولقد صبغت شعري اليوم ولم أستطع الذهاب للنزهة في المطر أو يمكن أن يخرج كل ذلك. وأنت تعرف الحقيقة المرعية عنى، ذلك أننى أصبغ شعري وأكره المطر.

– إذن أنت تكذبين؟

– حسناً، إذا أردت أن تقول ذلك.

وقف شاد هناك وحدق في إيرين. التفتت حولها ومشت إلى الخارج، أغلقت الباب خلفها. انتظرت على مضض لخمسة عشرة ثانية لكنه لم يأت خلفها.

البيت المسكون

بقلم / فرجينيا وولف(*)

لا يهم متى تستيقظ من نومك؛ ستسمع بابًا يوصد!

متعانقًا الأيدي تَنقّلا من غرفة لأُخرى يرفعان هذا ويفتحان ذاك، يستوثقان (كانا شبحين عاشقين).

تقول هي: "تركناه هنا"

فيضيف هو: "وهنا أيضًا!"

تغمغم: "وفي الحديقة"

يرد هامسًا: "برفق".. فتكمل جملته "وإلا أيقظناهم".

أواه، كلا! لستما من أيقظنا. أُخمن قائلةً: "إنهما يبحثان عنه ولذا يزيحان الستار"، ثم أُكمل قراءة صفحة أو اثنتين. عندما تيقنت من أنهما قد وجداه، أرحت القلم على طرف الكتاب. وعند هذه النقطة، كنت قد كللتُ من القراءة فنهضت لأتأكد بنفسي. البيت خالٍ تمامًا، والأبواب مفتوحة، ولا صوت سوى الهديلِ الفرحِ لحمام الغابة، وطنين آلة المذراة بالمزرعة. أخذت أحدث نفسي قائلةً: "لماذا أتيت إلى هنا؟ عمَّ أبحث وماذا كنت آمُل أن

(*) فرجينيا وولف: كاتبة إنجليزية تصنف من بين رائدات الكتابة النسوية في العالم، كما تعد من رائدات الكتابة عبر "تيار الوعي كطريقة للسرد"، ولدت في لندن في ٢٥ يناير ١٨٨٢، عانت فيرجينيا من الاكتئاب الشديد، وانتحرت عن عمر ٥٩ عاماً في ٢٨ مارس ١٩٤١.

أجد؟" كانت يداي فارغتين. فأعود وأقول لنفسي: "إذن، ربما يكون في الأعلى"، لكني وجدت التفاح بالسندرة. فأعود للأسفل مجددًا لأجد الحديقة على حالها الأزلي، عدا الكتاب الذي انزلق إلى العشب.

ولكنهما وجدا ما يبحثان عنه في صالة الاستقبال، إلا أنه ليس بمقدورك رؤيتهما، ولا حتى مثل خيال التفاحات المنعكس عن زجاج النافذة، أو انعكاس الورود، أو كرؤية خضرة أوراق الشجر عبر الزجاج. وإن كانا في صالة الاستقبال ستُولِيهِما التفاحة جانبها الأصفر أينما تحركا. ومع ذلك، في اللحظة التالية، إن كان الباب مفتوحًا، سينتشران على الأرض، أو يتعلقان بالجدران، او بالثريا المتدلية من السقف.

ماذا؟ يداي خاويتان. عَبَرَ ظل دُجٍ مغردٍ فوق البساط، وأصدرت حمامةُ غابةٍ هديلها من أعماق بِئر الصمت، ودق نبض البيت بهدوء قائلاً "آمنٌ، آمنٌ، آمن ... الكنز المدفون، الغرفة ..." ثم توقف النبض بعد هنيهة. أهذا هو الكنز المدفون؟

أخذ الضوء بالتلاشي بعد لحظات، هل أظلمت بالحديقة أيضًا؟ بلى، فقد كان الشجر ينسج الظلام ليصطاد أشعة الشمس الشاردة. باهرٌ جدًا، واستثنائي جدًا، كان الشعاع الذي يغرق ببرود تحت سطح الزجاج، كان هناك طوال الوقت مدفونًا بينما أبحث عنه. كان الزجاج هو الموت، والموت كان الفارق بيننا، إذ جاء للمرأة أولاً منذ بضعة مئات من السنين، وترك المنزل مُوصِدًا كل النوافذ، مُعتِّمًا كل الغرف، تركه، وتركها، سافر شمالاً، وغادر شرقًا، ورأى تقلب النجوم في سماء الجنوب، وعاد باحثًا عن المنزل،

فوجده مهجورًا عند الفجر. عاد نبض المنزل بفرح قائلاً "آمنٌ، آمنٌ، آمن ... الكنز لك".

تزأر الرياح بالجادة، فتنحني الأشجار وتهتز ذات اليمين وذات اليسار، وتنطلق أشعة القمر محمومة فتتشظى تحت المطر. إلا ضوء المصباح ينفذ بقوة عبر النافذة، وتتوهج الشمعة بثبات وأنفة. بينما يحظى الشبحان العاشقان بمتعتهما الخاصة عن طريق الطواف بالمنزل، يفتحان الأبواب، ويهمسان خشية إيقاظنا.

تقول هي "نمنا هنا" ويضيف هو "قبلات بلا حصر"، "الاستيقاظ في الصباح"، "تَسَلُلُ الضوء الفضي بين الأشجار"، "بالأعلى"، "في الحديقة"، "عندما حل الصيف"، "وفي ثلوج الشتاء". يوصد باب في مكان ما بعيد، وتُسمع طَرَقَات خفيفة كأنها نبض قلب.

اقتَرَبا أكثر، ووقفا بعتبة الباب. تهب الرياح، ينسل المطر على النافذة كأنه الفضة. أعتمت أعيننا، ولا نسمع خطوات بقربنا، ولا نرى سيدة تبسط رداءها الشبحي. أحاط المصباح بيده وقال "انظري، إنه يتنفس" يبدوان نائمين، والحب متكئ فوق شفاههما"

ينحني، ممسكًا بمصباحه الفضي، يحدقان بنا طويلاً، وعميقًا. تندفع الرياح بقوة، تهتز الشمعة برفق. تخترق أشعة القمر الجياشة الجدران والأرضيات لتلتقي بالوجهين المنحنيين، وتضيئهما بينما يفحصان النائمَيْنِ ويبحثان عن بهجتهما المخبوءة.

يخفق قلب البيت بفخر قائلاً "آمنٌ، آمنٌ، آمن". يتنهد قائلاً "مرت

سنوات طوال" ترد هامسة: "وجدتَني ثانية.. نائمةً هنا.. في الحديقة أقرأ.. أضحك.. أدحرج التفاح بالسندرة.. هنا تركنا كنزنا" ومع انحنائهما يرفع نورهما الغشاوة عن عينيَّ. يضرب نبض البيت بقوة: "آمن.. آمن.. آمن!" أستيقظ صارخةً: "أواه.. هل هذا كنزكما المخبوء؟ النور الذي في القلب."

الكناري

بقلم / كاثرين مانسفيلد(*)

هل ترى هذا المسمار الكبير على يمين الباب الأمامي؟ أنظر إليه برعب حتى اللحظة وأيضًا لم أحتمل أن أنزعه. أحب أن أفكر أنه كان هناك دائماً حتى بعد زمني. أحياناً أسمع الناس المجاورين يقولون: "لا بد أنه كان هناك قفص يتدلى منه".. وهذا يريحني؛ أشعر أنه لم يُنسى تماماً.

لا تستطيع أن تتخيل كم غنى بشكل رائع، لم يكن كتغريد طيور الكناري الأخرى، وذلك ليس فقط في مخيلتي. عادة ومن النافذة اعتدت رؤية الناس يقفون عند البوابة ليسمعوه أو ربما ينحنون فوق السياج بجانب البرتقالة المزيفة لفترة طويلة من الوقت– مأخوذين.

أفترض أن ذلك يبدو منافيا للعقل– ليس إن كنت سمعته– ولكن حقاً بدا لي أنه غنى أغنيات كاملة ببداية ونهاية لكل منها.

على سبيل المثال، عندما كنت أنهي عمل المنزل في فترة بعد الظهر

(*)كاثرين مانسفيلد بوشامب موراي: (ولدت في ١٤ أكتوبر ١٨٨٨ – توفيت في ٩ يناير ١٩٢٣)، كانت واحدة من أبرز كتَّاب القصة القصيرة الحداثيين. ولدت وترعرت في مستعمرة نيوزيلاندا، واتخذت من كاثرين مانسفيلد اسم قلمي لها. تركت نيوزيلندا في التاسعة عشر من عمرها، وانتقلت إلى المملكة المتحدة حيث أصبحت صديقة كتاب حداثيين مثل د.هـ. لورانس وفيرجينيا وولف. أصيبت خلال الحرب العالمية الأولى بالسل خارج الرئة الذي أدى إلى وفاتها في السن ال٣٤.
أهم اعمالها ظلت غير منشورة عند وفاتها، ونشرت في مجلدين القصص القصيرة "عش الحمامة" عام ١٩٢٣و"شيء طفولي" عام ١٩٢٤ و"مجلد قصائد" و"الروايات والروائيون".

وأغير بلوزتي وأحضر حياكتي إلى الصالة هنا، اعتاد أن يقفز يقفز يقفز من عمود إلى آخر، ينقر مقابل القضبان وكأنه يحاول جذب انتباهي، يرتشف قليلاً من الماء كما يليق بمغن محترف ثم ينطلق في أغنية رائعة، فأضطر أن أضع إبرتي جانبا وأستمع إليه. لا أستطيع وصفه؛ وليتني أستطيع، ولكنه دائماً كان الشيء نفسه كل عصر وشعرت بأني فهمت كل نوتة منه.

لقد أحببته. كم أحببته! ربما لا يهم كثيراً ماهية أن يحب أحد في العالم، ولكن الحب شيء واجب. بالطبع كان هناك دائماً منزلي الصغير والحديقة، ولكن لسبب ما لم يكونا أبداً كافيين.

الأزهار تستجيب بشكل رائع، ولكنها لا تتعاطف، ثم أحببت نجم المساء.. هل يبدو ذلك حمقا؟ اعتدت أن أذهب إلى الساحة بعد الغروب، وأن أنتظره إلى أن يشرق فوق شجرة الصمغ المظلمة ثانية. اعتدت أن أصفر: "ها أنت هناك، يا حبيبي" وفي ذات اللحظة يبدو لي أنه يشرق لأجلي وحدي. بدا وكأنه يفهم ذلك.. شيء ما مثل الشوق، وهو مع ذلك ليس الشوق. أو الأسف– إنه أقرب إلى الأسف. أسى لأي شيء؟، لدي الكثير لأكون شاكرة بسببه.

ولكن بعد أن جاء إلى حياتي، نسيت نجم المساء؛ لم أعد أحتاجه، ولكنه كان غريبًا، عندما جاء الرجل الصيني إلى الباب ليبيعه حمله عالياً في قفصه الدقيق، وبدلا من الرفرفة، مثل عصفور صغير مسكين، أعطى سقسقة صغيرة ضعيفة، وجدت نفسي أقول، كما اعتدت أن أقول للنجم فوق شجرة الصمغ: "ها أنت هناك يا حبيبي"، ومن تلك اللحظة كان ملكي.

يدهشني حتى اللحظة أن أتذكر كيف، هو وأنا، تشاركنا في حياتنا. في اللحظة التي أجيء فيها في الصباح وأرفع قطعة القماش من على قفصه يحييني بنوتة صغيرة ناعسة، عرفت أنها عنت: "ربة البيت! ربة البيت!" ثم أعلقه على المسمار في الخارج بينما أقدم لرجالي الثلاثة الشباب إفطارهم، ولم أكن أحضره في الداخل أبداً إلى أن يكون المنزل لنا ثانية. ثم، عندما ينتهي الغسيل، كان عبارة عن تسلية صغيرة. كنت أنشر جريدة فوق زاوية من الطاولة، وعندما أضع القفص فوقها، اعتاد أن يضرب بجناحيه بيأس، كما لو أنه لا يعرف ما سيحدث. "أنت ممثل صغير" هكذا اعتدت أن أوبخه ثم أكشط الصينية، أغبرها بالرمل الطازج، أملأ آنية البذور والماء، أثبت قطعة من عشب الطيور ومسحوقاً منعشاً بين القضبان، وأنا واثقة تماماً أنه فهم وقدر كل جزء من هذا الأداء. أنت ترى أنه كان بطبيعته رائع الأناقة. لم يكن هناك لطخات فوق ساريته، عليك أن تراه يستمتع بحمامه لتعرف أنه كان لديه عاطفة حقيقية تجاه النظافة. حمامه يوضع في الأخر، وفي اللحظة التي يكون فيها فيه فإنه يقفز بداخله. في البداية يرفرف جناحاً واحداً، ثم الآخر ثم يغطس رأسه ويرطب ريش صدره. قطرات الماء كانت تنثر فوق المطبخ كله، ولكنه لم يكن يخرج. اعتدت أن أقول له: "الآن هذا كاف جداً، أنت تستعرض فقط" وأخيرًا يقفز وهو واقف على رجل واحدة، يبدأ يجفف نفسه بمنقاره، يعطي هزة، ضربة، ارتعاشه ويرفع حلقه- أوه بالكاد أتحمل أن أستذكر ذلك. كان وقت تنظيف السكاكين في ذلك الوقت دائماً وكان يبدو لي أن السكاكين تغني أيضاً، وأنا افركها لامعة على اللوح.

الرفقة كما ترى- ذلك ما كانه- رفيق مثالي. لو عشت وحيداً فستدرك

كم ثمين ذلك. طبعا كان هناك رجالي الشباب الثلاثة الذين كانوا يأتون للعشاء كل مساء وأحيانًا كانوا يبقون في غرفة الطعام بعدها يقرؤون الجريدة، ولكن لم يمكن أن أتوقعهم يهتمون بالأمور الصغيرة التي كونت يومي، ولم عليهم ذلك؟ كنت لا شيء بالنسبة لهم. في الحقيقة، سمعتهم في أحد المساءات يتحدثون عني على الدرج بـ "الرثة الهزيلة" لا يهم. لا يهم ولا بأي شكل. إني أتفهم تماما. هم شباب ولم علي أن أمانع؟ ولكني أتذكر أني شعرت بشكر خاص أني لم أكن وحيدة ذلك المساء. أخبرته، بعدما خرجوا، قلت: "هل تعرف ماذا يسمون ربة البيت؟" ووضع هو رأسه إلى جانب ونظر لي بعينه اللامعة الصغيرة إلى أن لم أمنع نفسي من الضحك. بدا وكأن ذلك يذهله.

هل ربيت طيوراً؟ لو لم تفعل فكل ذلك يجب أن يظهر، ربما، مبالغاً به. الناس لديهم فكرة أن الطيور بلا قلوب، مخلوقات صغيرة باردة، ليست كالكلاب أو القطط. المرأة التي تساعدني في الغسيل اعتادت القول في أيام الاثنين عندما تتعجب لم لا أربي "كلب صيد ثعالب جميل"، "لا يوجد راحة سيدتي في كناري". غير صحيح، غير صحيح البتة. أتذكر في إحدى الليالي رأيت حلماً بغيضاً – الأحلام يمكن أن تكون قاسية بشكل كريه– حتى بعد أن استيقظت لم أستطع التغلب عليه، وهكذا وضعت ردائي وذهبت إلى المطبخ في الأسفل من أجل كأس من الماء. كانت ليلة شتائية وتمطر بغزارة. أظن أني كنت لا أزال نصف نائمة ولكن من خلال نافذة المطبخ لم يكن أعمى، بدا لي أن الظلام يحدق في الداخل، يتجسس. وفجأة أحسست أن فوق الاحتمال أنه لا يوجد لدي من أقول له "رأيت حلمًا بغيضًا" أو "خبئني

من الظلام"، حتى أني غطيت وجهي لدقيقة وعندها جاءت "حلوتي! حلوتي!" صغيرة، ققصه كان على الطاولة وقطعة القماش انزلقت بحيث شق من الضوء أشرق خلالها، "حلوتي! حلوتي!" قال الرفيق الحبيب الصغير ثانية، بنعومة بقدر ما يمكن له القول، "أنا هنا يا ربة البيت! أنا هنا!"، كان ذلك مريحاً جميلاً لدرجة أني أوشكت على البكاء، والآن قد ذهب. لن أملك طيراً آخر بعده، أو أي حيوان أليف من أي نوع. كيف يمكنني؟ عندما وجدته مستلقياً على ظهره، وعيناه باهتتان ومخالبه منزوعة، عندما أدركت أني لن أسمع ثانية حبيبي يغني، شيء بدا وكأنه مات داخلي. قلبي شعر بالخواء كما لو أنه كان قفصه، يجب أن أتغلب على ذلك. بالطبع يجب ذلك، المرء يمكن له تجاوز أي شيء مع الوقت. والناس يقولون دائماً أني أملك حسماً مرحاً. هم محقون وأنا أشكر ربي أنه لدي.

كله سواء، دون أن تكون مريضاً، وتفتح الطريق إلي، إلى الذكريات وهكذا، يجب أن أعترف أنه يظهر لي أن هناك شيئاً حزيناً في الحياة. من الصعب قول ما هو. لا أعني الأسى الذي نعرف أجمعين، كالمرض والفقر والموت. لا، إنه شيء مختلف. إنه هناك، عميق في الأسفل، عميق، جزء من المرء كتنفسه. مهما عملت بجد وربطت نفسي عليّ فقط أن أتوقف لأعلم أنه هناك، ينتظر. غالباً ما أعجب إن كان الجميع يشعرون بذلك، لا يمكن للمرء أن يعلم. ولكن أليس استثنائيًا أن تحت غنائه العذب المرح الصغير كان هناك.. الحزن؟ آه، ما هو؟ ذاك الذي سمعتُ.

حلوى الزفاف

بقلم / مادلين ثيان(*)

جلس جوزيف قبالة الآخرين، كان رجلًا مربوع القامة، ممتلئ الجسم، تبدو كلّ حركة يفعلها مفاجئة، وقد جاءه اللقب الذي يكنى به، أبو ڤيكتور، عندما ولد ابنه قبل خمس وعشرين سنة، تماماً كما أصبح والده قبل خمسين سنة، أبو جوزيف، عندما جاء جوزيف نفسه إلى هذا العالم. إنه أمر شائع في الأسرة.

تحلّق الرجال الأربعة حول الطاولة في الشرفة الصغيرة. كانت الشمس مائلة إلى الغروب. وذكّر نور الشمس الذي رسم خطاً شطر قالب حلوى الزفاف إلى شطرين وأحدث ظلّاً مائلاً فوق الورود التي تزيّن حواف القالب، أبو ڤيكتور بالساعة الشمسية. صرّت أرضية الشرفة الخشبية التي أعلن أنها بحاجة إلى ترميم، لكن المالك رجل فقير ولم يكن بوسعه إصلاحها، وفي النهاية، با ع المالك البناية كلها في السنة الماضية إلى متعهد بناء. لذلك سينتقل أبو فيكتور وزوجته، نادية، في نهاية الشهر إلى شقّة أصغر في حيّ آخر. كان

(*) مادلين ثيان: ابنة عائلة صينية هاجرت من ماليزيا إلى كندا، للكتابة عن النزوح والذاكرة والفقدان، في محاولة لاستنباط ما خلفته كوارث شهدها العصر الحديث من مآسٍ على من عاشوها، وكان تناولها المرهف للاحتلال الياباني لماليزيا والإبادة الجماعية في كمبوديا والثورة الثقافية في الصين في رواياتها الثلاث، وتأثيرات هذه الأحداث المدمرة على أجيال بأكملها، قد رفعها أخيرًا إلى مصاف الأدباء الموعودين.

التوقيت ملائماً، وبخلاف جيرانهما في البناية، لم يعترضا على أمر الإخلاء.

لكن ماذا عن قالب الحلوى؟ تساءل أبو فيكتور عندما استيقظ فجأة قبل ليلتين. إن نادية ليست في البيت. إنها تزور أختها في ڤانكوفر. في أثناء غيابها، بدا سريرهما عريضاً وفي حالة فوضى، وبدا أنه أصبح مائلاً بحيث يجعله ينزلق إلى الأرض. نهض.

كانت الغرفة أشبه بفرن، بشيء من الدوار، توجّه أبو فيكتور إلى المطبخ وفتح باب مجمّدة الثلاجة. لم يعرف كم وقف أمام الثلاجة، حيث شعر بنسمة من الهواء البارد تهبّ على وجهه. أخرج أخيراً قالب الحلوى المغلّف بغطاء من البلاستيك الذي يقبع في المجمّدة منذ عام ٢٠١١ حمل القالب ووضعه على الطاولة.

انتظر حتى الساعة الخامسة صباحاً ليتصل بأعزّ أصدقائه، جورج.

"كارثة".. كان هذا كلّ ما استطاع أبو فيكتور أن يقوله في البداية. فقد خشي أنه إذا قال كلمات أخرى أن يُسحب السكين الخيالي من بطنه، ويجعله ينزف دماً خيالياً، ويموت موتاً متخيلاً.

"كارثة"..

"ماذا حدث؟"

"لا يمكننا أن نأخذ قالب الحلوى إلى الشقّة الجديدة، لكننا لا نستطيع أن نرميه أيضاً".

"ماذا قالت زوجتك؟"

"لم تقل شيئاً. نادية لم تقل شيئاً". أخذ يبكي وأمل ألا يشعر جورج بذلك. ثم أضاف، "لن تعود حتى عطلة نهاية الأسبوع".

اقترح عليه صديقه حلاّ. في يوم الجمعة، سيحضر جورج وطوني وإلياس إلى بيت أبو فيكتور، وسيتناولون معاً قالب حلوى الزفاف.

بدا أن قالب الحلوى قد بدأ يتفتت وأصبح طرياً، وربما لم يعد صالحاً للأكل.

سحب أبو فيكتور قدمه اليمنى من نعله الجلدي، وحكّ كاحله الأيسر. لم يضع أطباقاً على الطاولة، لأنه لم يكن متيقناً حتى الآن، في ضوء عصر يوم الجمعة، من أن تناول قالب الحلوى فكرة جيدة.

في بيروت، قبل الحرب، كانوا هم الأربعة لا يزالون أطفالاً، كان طوني الذي كانت هيئته تشبه الصاروخ، زعيمهم، وكان جورج الذي فقد بصره بسبب تعرضه لحادث، يستخدم عكازاً. أما إلياس فكان متعجرفًا يتحدث اللغة الفرنسية في البيت، فقد أطلق على نفسه ذات يوم لقب الكولونيل. وأخيرًا، جوزيف الذي تفوق في الرياضة. كانوا يعيشون في نفس البناية منذ أن وِلِدو، وكانت أمهاتهم يحتسين القهوة معًا، وكان آباؤهم يكررون رواية النكات نفسها.

بعد عشرات السنين، وصلوا أربعتهم إلى كندا، كل بطريقته الخاصة، وهم يعيشون الآن في أحياء مختلفة في المدينة ذاتها. كما جذبت مونتريال عدداً من أصدقائهم وجيرانهم عبر البحار. فقد كانت الحرب مشتعلة هناك، وكيف يمكن لأيّ أسرة أن تعيش تحت وابل القنابل وتحت رحمة القنّاصين

طوال خمس عشرة سنة؟ كان الأمر يبدو غريبًا؛ ففي أحيان كثيرة كان أبو فيكتور يتساءل كم عدد مواطنيه اللبنانيين الذين غادرو البلد في عام ١٩٩٠ عندما كانت الحرب على وشك أن تتوقف؟ بعد أن رأوا كلّ شيء، وعانوا ما عانوه.

حدث ذلك في عام ١٩٩٠، عندما شاهد أبو فيكتور طوني يجتاز الشارع في وسط مدينة مونتريال. لقد أصبح طوني أطول قامة وزاد قليلاً على ستّة أقدام. كانت هيئته لا تزال تشبه الصاروخ، عيناه لا تزالان زائغتين. كان بوسع أبو فيكتور أن يتعرّف عليه أينما ذهب. نادى اسم صديقه. تعانقا. بكيا. ربت أحدهما على ظهر الآخر. سكرا إلى حد الثمالة، تحدّثا عن كلّ شيء وعن لا شيء. كان طوني على تواصل مع الكولونيل، وكان جوزيف قريباً من جورج. وهكذا بعد بضع ليالٍ، وجد الأربعة أنفسهم جالسين معاً في مطعم، وقد كبروا فجأة خمس وعشرين سنة، لا يجمعهم شيء سوى الطعام الذي يتكون من أربع قطع من شرائح اللحم التي تنزّ قليلاً من الدم، وشرب كل منهم ثلاثة كؤوس كبيرة من البيرة، بينما كان الكولونيل يحتسي كأساً عريضاً من الوسط من نبيذ شاتو مارغو.

ما نوع هذه الحياة، تساءل جوزيف آنذاك. يا لها من معجزة.

أحبّت النادلات جورج. لقد سحرتهن نظارته السوداء ووجهه المؤرق والعكاز الأبيض الذي يستخدمه بثقة، كسلاح. منجرفاً إلى الحنين إلى الماضي، ذكر جوزيف تلك الفجوة الضيّقة في أسفل البناية التي كانوا يقيمون فيها حيث كانوا يختبئون عندما كانوا أطفالاً، التي لم تكن تتسع إلا لطفل

واحد في كل مرة، حتى بات التسلل إليها محفوفاً بالخطر بعد أن ازدادوا طولاً، وضخامة، فازداد خطر أن يعلقوا في فجوة الحائط.

قال طوني: "تصوروا. في تلك الأيام، حتى فخذي لم تكن تتسع فيها".

حكى الكولونيل نكتة عن شيء آخر لا يتسع فيها.

كان جوزيف الشخص الوحيد المتزوّج والذي عنده طفل من بين الرجال الأربعة. رفع أصدقاؤه كؤوسهم وعمّدوه باسم "أبو فيكتور" الفخور، أبو فيكتور.

رفع جوزيف عينيه، ونظر إلى الساعة المعلقة على جدار المطعم ووجد أنه، على نحو لا يمكن تفسيره، يتنشق رائحة بشرة زوجته نادية، النظيفة، العطرة. نادية، نادية، نادية. فيكتور، فيكتور، فيكتور، فيكتور.

حول طاولة الشرفة، كان الكولونيل يضحك لنكتة حكاها جورج. دأب جورج على جمع النكات منذ طفولته. فقد كان يطوف بعكازه الأبيض في أرجاء الحيّ يتسول أو يستعير أو يسرق نكتة من أفواه الرجال العجائز الذين يجلسون إلى الأبد في المقاهي. ثمّ بدأ جورج يجمع النكات في الملاجئ، نكات كثيرة. كان يحلم في نشر كتاب يضم النكات التي جمعها، لكن كما كان يردد أبو فيكتور دائماً، أي حلم هذا بحقّ الجحيم؟

غابت الآن ثلاثة أرباع الشمس. في الشرفة المقابلة كان هناك طلاب جامعيون مقيتون. كانت أصوات ضحكاتهم المجلجلة تصل إلى آخر الشارع، تبعثر موجة بعد موجة من الطيور.

حدّق الكولونيل في الطلاب وقال: "بحق الله الذي في السموات، أريد أن أفقأ عيونهم". كان الكولونيل يدرّس في جامعة مونتريال مختصاً بالمدرسة المشائية: أرسطو وستراتو وآخرون مثلهما، ثم أضاف، "في هذا البلد، عندما يكون الناس جدّيين فهم يتكلمون همساً، أما عندما يكونون عابثين فيتكلمون بأصوات عالية! إنهم يريدون أن تسمع تفاهاتهم".

قال جورج: "هذا يشبه تلك النكتة، عندما دخل أبو العبد أحد المطاعم في برج حمود فسأله صاحب المطعم".

قال طوني: "يبدو أن قالب الحلوى في حالة جيدة".

"إن قوالب حلوى الأعراس تكون للزينة فقط". كان صوت الكولونيل حاداً ومزعجاً. "ولن أكون قاسياً معك يا أبو فيكتور، يا أخي، لكنّك تحتفظ بها في الثلاجة منذ ثلاث سنوات".

استرخى أبو فيكتور في كرسيه. فعلوا جميعهم ذلك. للحظة شعر بأنه قادر على أن يتحكم بكل واحد منهم، وبأن بوسعه أن يدفعهم إلى الأمام أو إلى الخلف مثل حبات المسبحة، ودون أن يدركوا، فإن كلّ ما يفعلوه هو نتيجة تصرف أو إيحاء منه. فهم يلجأون إليه كما تلجأ الأوراق إلى أغصانها. لو قفز من البلكون، فهل سيحذون حذوه؟ لكن متى تكدرت وجوههم، واستدارت أوراكهم، وتسطحت أقدامهم؟ متى أصبحوا جميعاً يشبهون أجدادهم؟ كان يعرف أن أصدقاءه يريدون مساعدته، بل إنهم يرغبون في التخفيف من حدة الكارثة. ألم يحاولوا التخفيف من كوارث الآخرين طوال فترة الحرب؟ إن إلقاء النكت شيء بطولي، لأنه يثبت عدم مبالاة الشخص.

هذا النوع من العواطف – أن لا تبكي، أن لا تشدّ شعرك، أن لا تراودك أفكار بالانتحار – هو الذي يثبت أنك نجوت من الموت، ولم يصبك مكروه.

نقر جورج بعكازه عدة نقرات على الأرض بقوة، وقال: "أبو فيكتور، أظن أنك يجب أن تأخذ قالب الحلوى إلى الشقّة الجديدة. لا داعي أن تتصرف بها إلا بعد أن تكون جاهزاً للقيام بذلك".

"نعم يا جورج. متى سأكون جاهزاً؟"

"لكن لماذا نتناولها كلها، حبيبي؟ ".. سأل الكولونيل.

كان السؤال منطقياً، لكن نوبة غضب اعترت أبو فيكتور. فقد تخيّل أنه ينحت فطيرة من الشوكولاته ويقدمها للكولونيل في صحن. إنها ستكسر أسنانه الثمينة.

قال طوني: "ربما يتعين علينا أن نلقي به في النار. ألا يفعل الطاويون ذلك؟ نقدم قرابين للنار".

أثارت معرفة طوني بشيء عن الطاوية دهشتهم، ولم ينبس أحد منهم بشفة.

أخيراً تكلّم جورج، فقال: "لكن ممَ صنع قالب الحلوى هذا؟ من الممكن أن يستمر في الاحتراق طوال سبعة أيام بلياليها".

"لماذا لا تتبرّع به إلى المشرّدين؟"

تجاهل أبو فيكتور سؤال الكولونيل وراح يحدّق في الشارع. لقد عاش هو وزوجته وابنه في هذه الشقّة حوالي عشرين سنة، وقد نشأ فيكتور فيها

وكبر. كانت تخضع للإيجار المحدد لذلك بدأت تتهاوى. فقد بدأ الجص يتقشر وبدأت تظهر شقوق في الجدران كأن البناية تكتب لهم رسالة تحذير. خلال تلك الفترة، كانت الجارة التي تسكن في الطابق الثاني تكرهه. كانت تشتكي بأنه عندما يمشي، فإن قطعاً من الجص تتفتت وتسقط من سقفها. "ألا تستطيع أن تخلع حذاءك على الأقل؟"

فقال لها أبو فيكتور بحزن: "لا. لا أستطيع. هل تريدين أن تري الأكزيما في قدمي؟" لم يكن مصاباً بالأكزيما، لكن جدّه المرحوم كان مصاباً بها. فقد كان باطن قدمه المتشققة يؤلمه كثيراً، وفي بعض الأحيان لم يكد جدي المسكين يقوى على السير. "عليّ أن أدهن قدمي بالفازيلين طوال أربع وعشرين ساعة كل يوم، وإذا لم أنتعل هذا الخف، فقد أتزحلق وأكسر رقبتي. إن أهمية هذا الخف بأهمية العكاز الأبيض لرجل ضرير. إن علاقاتنا ليست مثالية، لكني لا أظن أنك تريدين أن تنزلي كارثة فوق رأسي. أليس كذلك؟"

كانت الجارة مهذبة للغاية، ولعلها لم تقل له إنه كذاب في وجهه بدافع الشفقة.

لكن زوجته لم تكن تفعل ذلك. فقد دأبت نادية على القول له إنه كذاب كلّ يوم في حياتهما معاً، أحياناً لاستفزازه، لكنها بدأت تقول له ذلك مؤخراً بدافع اليأس. هل حقاً كلّ يوم؟ حسناً. حتى لو كان يبالغ، أليس الحقّ معه؟ فالحزن داخل هذا البيت سيقتلهما كليهما. لم يكن يستطيع أن يتنفّس.

من بين كلّ الأماكن، جاء قالب حلوى الزفاف من مخبز ياباني في مونتريال. مخبز يوكي وهانك لصناعة حلوى الأعراس، كان القالب يبدو أشبه

بأربع قبعات نسائية تعلو الواحدة منها الأخرى بأحجام تصغر تدريجياً. كان ابن أبو فيكتور، فيكتور، هو الذي اختار القالب مع خطيبته مي – يونغ. لم يكن من الشائع رؤية شاب لبناني مع صبيّة كورية. كانا يلتقيان منذ ست سنوات ويزمعان إقامة حفل زفاف صغير لا يتجاوز عدد المدعوين إليه ستين شخصاً.

كان قالب الحلوى يلمع في الشمس مثل سنّ عملاق. تخيّل فيكتور وهو في بدلته وبيده سكين لقطع قالب الحلوى وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة. إن تخيّل ابنه جعل أبو فيكتور يريد أن يمزق قلبه. ماذا بوسعه أن يطلب من أصدقائه؟ هل يمكن لصديق أن يبقيه تحت الماء؟ أي صديق يستطيع أن يساعده على أن يموت، أن ينقذ زواجه، أن يسلبه حياته ويمزّقها إرباً ثم يبدأ حياة جديدة؟

أدار طوني كرسيه عن طاولة الشرفة. راح يحدّق في الشارع ثم قال: في عصر يوم ربيعي في عام ١٩٨٧، دخل إلى مقهى في مونتريال. جلس إلى طاولة وطلب قهوة إسبريسو وقطعة "كيك بابا بنكهة الرُم" للاحتفال بنهاية الحرب الأهلية اللبنانية. قال لنفسه، لكن ماذا لو كانت كلّها مجرد أكاذيب؟ ماذا لو كان كلّ ذلك مجرد مزحة؟ ربما لم تنته الحرب بعد. لكن لم يعد ذلك يهمني! كلّ مرة يقولون إنها انتهت، سأشتري لنفسي شيئاً أحبّه. لقد زاد وزنه عشر باوندات، ربما خمسة عشر باونداً، قبل أن يدرك أن خطته خاطئة. قال لنفسه، إن رجال المليشيا الخنازير هؤلاء يجعلونني بديناً. ماذا يجب أن أفعل حتى أبقى نحيفاً؟ يجب أن أحبّ. وهذا ما فعله.

"وهل أحببت؟" سأله الكولونيل.

"ألم أكن في حالة جيّدة آنذاك؟"

فقال جورج: "إنها مدينة من النساء الجميلات".

"ألهذا السبب بقينا؟"

فقال الكولونيل: "تحدّث عن نفسك".

لم يقل طوني إنه أُغرم بنادية. نادية الجميلة، المثيرة، بأصابعها الطويلة النحيلة التي تشبه أصابع عازفة بيانو، وشعرها الكثيف الذي تفوح منه رائحة عطرة. مع زوجة أبو فيكتور، أحس طوني أنه بدأ يصبح نوعاً آخر من الرجال. حاول أن يسرقها منه لكنّه لم يفلح. لقد مرّ زمن طويل على ذلك. أصبح تاريخاً قديماً. لكنه لماذا يقول أشياء كثيرة، ولماذا الآن أكثر من أي وقت مضى؟ عندما بدأ طوني يحكي القصّة، نسي النهاية. نسي أنه كانت هناك نهاية. حدّق في قالب الحلوى، جعله اضطرابه يصاب بالخرس.

كانت الجدية حول طاولة الشرفة مثيرة للأعصاب. كان أبو فيكتور ساهماً، يفتل كأس النبيذ بيده. كان جورج يسمع صوت طقطقة موسيقى من شرفة أخرى. لم يكن يتقن اللغة الفرنسية، لكنّه خيّل إليه أن المغني يصيح، اخلع! اخلع! اخلع قميصك. مسح جورج أنفه. كانت نظاراته السوداء تنزلق من أنفه. كانت الحرارة شديدة. عندما كان طفلاً، اعتاد الجيران على التكلم همساً، "جورج المسكين، بعكازه الأبيض ونظاراته السوداء، يشبه رجلاً عجوزاً". ابتسم.

لم يكن الجيران يعرفون أن النساء ينجذبن إلى عماه كما تنجذب النجوم إلى السماء في الليل.

مدّ جورج يده اليسرى على الطاولة، ودفع أحدهم، ربما أبو فيكتور، كأساً إلى أصابعه.

"جورج، ماء؟" قال طوني، "لا يزال المساء شديد الحرارة".

"إني أفضّل النبيذ. أتعرف ماذا يقول أبو العبد، إذا كنت تريد أن تسرق شيئاً، فاسرق جملاً". أبعد عنه الماء. أمسك عقب كأس النبيذ بين أصابعه، وقال: " شكراً"

وثب أحدهم فجأة من على كرسيه. لا شك أنه أبو فيكتور. إنه لا يفعل شيئاً قط ببطء.

سمع جورج وقع خطوات، فُتح الباب الشبك ثم أُغلق، ثم فُتح مرة أخرى.

عاد أبو فيكتور حاملاً الصحون والسكاكين والملاعق. وربما بعض الشوكات. كانت الشمس ترسم شكل عرق وريدي أحمر، مثل ظاهر ورقة شجر، على جفنيه. كان المكان لامعاً جداً في الخارج.

في صباح اليوم الذي أزالوا فيه الضمادات من عيني جورج، شعر بانهيار تام فطلب من والديه أن يطلقا عليه اسماً جديداً. خيّل إليهما أنه يمزح، لذلك ظل اسمه جورج. ولمّا كان في العاشرة من عمره عندما وقع الحادث، فقد كان قد رأى الكثير من الألوان. لذلك لم تغب الألوان عن مخيلته. كانت الألوان

تراوده في خطوط وأشكال، في فسيفساء تضمّد العالم. أخبره الأطباء والممرضات والكبار والكهنة أموراً مختلفة: كم كان محظوظاً لأنه نجا من الانفجار، كم كان محظوظاً لأن الفرصة أتيحت له ليعيش على أرض الله بطريقة مختلفة. قالوا له لا بد أن الله يحيطه برعايته. لاحظ جورج الخطوط العنكبوتية تتنفّس وراء جفنيه: كانت ترسم أشكال حيوانات، أوزان اللغات، ضغط الألوان. كانت خطوطاً ترتبط بأسلاك تنفجر، لكنها لا تخلّف ضحايا. في عام ١٩٧٥، السنة التي اندلعت فيها الحرب، كان هو وجوزيف وطوني والكولونيل في العاشرة من العمر.

كانوا يحبّون إثارته، يلوّحون بأيديهم أمام عينيه، حركاتهم تشوش الألوان التي يراها وتحدث هبات من الهواء الخفيف على جلده. كان الأولاد الثلاثة يمسكون بيديه ويمررونهما فوق سطوح أشياء، مثل غلاف رصاصة، غلالة مسروقة، صخرة في هيئة نابليون، قطّة اسمها فوفو. لقد تذكّر، أكثر من أي شيء آخر، كيف كان يجري به جوزيف وطوني والكولونيل أسفل الدرج متوجهين إلى الملجأ في أسفل بنايتهم. أيديهم كلها على جسمه – يمسكون رسغيه، مرفقيه، ظهره، رأسه – وهم يدفعونه أسفل الدرج. لم يكن صوت أقدامهم الصغيرة يسمع من شدة الانفجارات التي تبعث على الصمم. كان مجرد سماع الصوت يجعلك تشعر بأنك في عداد الأموات. كان ينتابه الإحساس بأنّهم هم القنبلة التي ستسقط من شدة اندفاعهم وهم يهبطون الدرجات، أو بدقة أكبر، ربما كان هو القنبلة التي يحملونها في بطن أيديهم، ليلقوا به في الملجأ، ويأخذوا معه الجميع، الأحبة والأعداء، أفراد الأسرة والغرباء. جوزيف، جوزيف، كان يصرخ، فيصرخ الفتى الآخر جورج الذي

كانت نبرة صوته تشي بأنه ينادي جورج آخر من داخل صدر جورج، وسيسحبه هذا الفتى أيضاً. إلى أين؟ لا إلى حيث السلامة. الدرجة التالية، المخبأ التالي، تدفق الشعور التالي.

أما الآن، وهو جالس بجانب جوزيف، فهو لا يعرف ماذا يتمنّى لصديقه سوى الخدر. موت الإحساس. كان صوت ابن جوزيف، فيكتور، خافتاً دائماً. والصوت الخافت تغرقه الأصوات الأخرى على الدوام.

"هل يمكنك أن تعطيني أيضاً قليلاً من النبيذ، يا طوني؟"

صوت الكولونيل ذكّر جورج بالنوارس.

فقال طوني: "النبيذ حلو كثيراً، حبيبي".

قال جورج بصوت منخفض: "إذا تناولت قطعة حلوى فلن يبدو النبيذ شديد الحلاوة".

قال الكولونيل: "أبو فيكتور، هل هذا التمثال المنحوت جديد؟"

"جديد؟ جديد منذ ثلاث سنوات".

"كيف ذلك؟ ألم أزرك منذ مدة طويلة؟"

ساد صمت.

واصل الكولونيل كلامه: "آخر مرة رأيتك فيها، كانت هناك حرب أيضاً".

"حرب أخرى".

فقال طوني "نفس الحرب القذرة".

أراد الكولنيل أن يذكر شيئاً من الماضي، عندما كانوا أطفالاً، لو قال الشيء المناسب لشعر الرجال الأربعة بالارتياح. إن الحاضر حقل ألغام، والسلام شيء مخادع. كيف يتوقع أن يساعدوا أبو فيكتور؟ لا شيء يمكن أن يحلّ محل فيكتور الذي كان، حتى عندما بلغ الثانية والعشرين من العمر، يمتلك حلاوة طفل.

قال طوني: "جورج، أيها العجوز، هل تريد قطعة حلوى؟"

"لم لا؟"

فقال أبو فيكتور: "نعم، لِمَ لا؟"

رفع أبو فيكتور السكين والصحن في يده. وضع الصحن بكلتا يديه ثبت نصل السكين فوق أعلى طبقة من قالب الحلوى.

"أنا أبدأ من الأسفل"، قال طوني:

"هل ستفعل ذلك؟"

"هل أفعل ذلك نيابة عنك؟" سأل طوني.

"لا، يا صديقي. لقد قمت بما يكفي".

ضحك الكولونيل. بدت الضحكة غريبة. أحسّ أبو فيكتور بأن السماء نفسها تحدّق فيهم وتصدر حكماً، وبأنه لم يكن يزعج أصدقاءه الثلاثة فقط، ولا نادية، بل السماء نفسها أيضاً.

"من هو الأكبر سناً هنا الآن؟" سأل الكولونيل مع أنه كان يعرف.

"طوني. فهو أول من يبلغ الحادية والخمسين".

"توقفت عن النمو منذ فترة طويلة يا جورج. هل أنت أعمى؟"

"صديقتك، ما اسمها"، دمدم جورج، "لقد رأيتها جيداً. أوه لا لا".

"تذكّر الآنسة أوه لا لا!" قال الكولونيل، "نهدا الآنسة پاپينو الصغيرين. ساقا السيدة لو نورماند الممشوقتين".

قال جورج: "في يوم من الأيام، التقى باريسي وأمريكي وإيراني وأبو العبد في مؤتمر. وفي وسط حديثهم...."

"توقف عن إلقاء النكات"، قال أبو فيكتور متوسلاً.

لمست أصابع طوني كأس نبيذه. لا نريد سماع المزيد من النكات. اندلق النبيذ على جورج الذي لم تصدر عن جسمه أي ردة فعل. استدارت عدسات نظارته السوداء بعيداً عن قالب الحلوى نحو الشمس. وقع عكازه الأبيض بعد أن ارتطم باختلاجة ركبته، على الأرض.

في الطابق الأسفل، صاحت الجارة محبطة "لكن، لا! لا!" ربما لم تكن تنوي أن يسمعوا ذلك.

وثب طوني، وجرى إلى الداخل بحثاً عن قطعة قماش، وعاد حاملاً حفنة من المناشف الورقية.

"هل هو نبيذ أحمر؟" سأل جورج.

"نعم".

حسناً.

نظفوا المكان ثم جلسوا.

اقطع قالب الحلوى يا "أبو فيكتور"، قال جورج.

"نعم"، أجاب. أبو فيكتور، أبو فيكتور. "شكراً. سأفعل ذلك".

ذابت قطعة الحلوى ببطء في فم أبو فيكتور. اعترته دهشة لأن السكّر بدأ يسري في جسمه. ربما يجب ألاّ يعرف المرء كلّ الأشياء التي عليه أن يعرفها. شعر أبو فيكتور بالغثيان لأنه كان يعرف ويظن أنه قد يغرق في المعرفة. سقط اليوم المزيد من القنابل على هؤلاء الأشخاص الملعونين المساكين. ماذا يمكن للمرء أن يفعل؟ لا توجد عدالة. لقد تعب من المعرفة.

شيئاً فشيئاً انتهت الحرب في لبنان. كانت تلك تجربة أبو فيكتور. في الحقيقة، خلال عشرين سنة، لم يكن أحد يعرف عما إذا كان من الجيد أن يعود المرء إلى مسقط رأسه، بيروت. لم يكن أحد يعرف عمّا إذا كان السلام مؤقتاً، فترة استراحة يمضيها المرء في مقهى، قيلولة قصيرة قبل أعمال القتل، ثم يعود القتال. كذلك فإنك لا تعرف متى تفتح باباً وتدع الماضي يتدفق نحوك ببكائه الهستيري وبأذرعه الممدودة. في الحقيقة، كان يفضّل الماضي على الحاضر. قالت مي – يونغ لفيكتور مثلاً كورياً: "تزدهر في النكبات، لكنك تموت في الحياة الناعمة". عاش والد ووالدة مي – يونغ خلال الحرب الكورية. كانا طفلين آنذاك. "كنت ستشعرين بأنك في بيتك معهما"، توقّع فيكتور، وكان محقّاً.

كان أبو فيكتور يفهم بيروت جيداً، لكنّه كان يعتقد بأن ثمة أمراً سقيماً وقلقاً يكتنف مونتريال. هل هو الهواء أم الماء أم جليد الشتاء القاسي؟

ما الذي جعل الناس يفقدون صوابهم، ولو مؤقتاً؟

لماذا تبدو الشمس عابثة هنا؟

كان ابنه قد نشأ وكبر في كندا. ولو كان فيكتور، في ظروف مختلفة، بحاجة إلى مساعدة أحد، لكان قد أتى بسهولة إلى والده، إلى طوني، إلى الكولونيل، بل حتى إلى جورج (بإمكان رجل ضرير أن يقتل شخصاً بالصدفة. كانوا يتناقلون هذه النكتة عندما كانوا أطفالاً: بإمكان جورج أن يفتح النار على آخرين بالصدفة). البقاء على قيد الحياة سهل للغاية. عندما كانوا مراهقين، كان يخيّل إليهم أن كلّ ما يلمسونه يتحوّل، إذا لم يكن إلى ذهب، إلى الحياة نفسها. إن فعل الحياة لا يتعدى أن يأخذ المرء الأمور بيديه.

لم تكن مي – يونغ، التي كان من المفترض أن تصبح كنّته، بحاجة إلى قالب الحلوى هذا. فقد التقت في السنة الماضية بشاب آخر. وعلى الرغم من تعلق أبو فيكتور ونادية بمي –يونغ، فقد قررا ألاّ يحضرا حفل زفافها. لأن ذلك سيبدو كأنهما يتخلصان من ابنتهما. كان والدا مي –يونغ محظوظين. فقد كان عندهما ثلاثة أطفال، أما أبو فيكتور ونادية فلم يكن عندهما إلا وحيدهما المحبوب، ابنهما فيكتور.

تذكّر أبو فيكتور الآن حادثة سابقة. بدأ يحكي عنها لطوني وللكولونيل ولجورج. كان أبو فيكتور مع ابنه في السيارة. كان فيكتور قد حصل على

رخصة القيادة مؤخراً، لذلك كان في السابعة عشرة من عمره. كان يقود السيارة عبر تقاطع القديس لوران ومونت رويال عندما اجتاز راكب دراجة إشارة المرور، انحرف بشدة عليهما حتى كاد فيكتور أن يدهسه. إنه راكب دراجة غبي. لم يدرك الواقع بأنه نجا من الموت بإعجوبة. مصدوماً، أنزل فيكتور نافذة السيارة، وصاح: "ما خطبك؟ ألا ترى أنني كدت أدهسك؟"

فضحك راكب الدراجة وقال بالفرنسية: "من أين أنت، يا قطعة الخراء؟"

أحسّ أبو فيكتور بأن الشارع، بل المدينة برمتها، بل ربما البلد كله، قد استدار إليهما وراح يحدّق فيهما. كساه الصمت مثل قطعة قماش.

كسر فيكتور الصمت. "أنا من هنا"، صاح الصبي. صاح بالفرنسية ثم بالإنكليزية ثم بالعربية: "من هنا. من هنا، أيها الأحمق. لن أذهب إلى أيّ مكان! أتسمعني أيها الخراء العنصري؟ نحن هنا ولن نذهب إلى أيّ مكان".

هل هم من هنا؟ سأل أبو فيكتور أصدقاءه الآن. واصلت السيارة طريقها. كرّر فيكتور كلمتين فقط: "هذا اللقيط، هذا اللقيط". كان فيكتور معسول اللسان على الدوام، رائق المزاج، وكان أبو فيكتور شديد الفخر به على موقفه الصلب. قال له ذلك بصوت مرتفع: "فيكتور، لقد لقنتَ ذلك الغبي درساً".

هل رأيت النظرة البادية على وجهه؟ إني فخور بك".

حول طاولة الشرفة، لم يجبه أحد. إحساسهم بالضيق وحزنهم بدا مثل دخان ينبعث في داخل رئتيه.

جرع أبو فيكتور نبيذه وتناول لقمة أخرى من الحلوى.

إن اسم ابنه، فيكتور، يرتبط بهذا المكان – بمونتريال، بباريس، ببيروت – ويرتبط الاسم بوالد جوزيف نفسه أيضاً. لكن هل يكفي أن يربط الاسم أحداً بقطعة أرض؟ "لا ينتمي الناس إلى أناس آخرين"، قالت له نادية في الأسبوع الماضي فقط، "ولا تنتمي مي – يونغ إلى فيكتور، ولا ينتمي ابننا إليك، وأنت لا تنتمي إليّ، ولا ينتمي أحدنا، ولا واحد منّا، إلى هنا. ولا واحد منّا".

"إن لم يكن إلى هنا"، قال لها، يريد أن يضمها إليه، لكنه كان يعرف في أعماقه بأنها لا تريده، "فإلى أين؟"

"لا أعرف يا جوزيف"، دموعها أحرقته، "لماذا لا يوجد لدينا أجوبة؟"

الآن قال محدثاً الهواء، طوني، الكولونيل، وجورج، "لو سال دمكم على الأرض، كما سال دم فيكتور، ألا يحقّ لكم أن تدعو هذه الأرض أرضكم؟"

"أبو فيكتور"، قال جورج، "كان ذلك مجرد صدفة".

"ما هي الصدفة يا جورج، وما هي الكارثة؟"

فقال الكولونيل: "اتفق معك يا أبو فيكتور. لكن ربما كان كل شيء صدفة، كلّ شيء، صدفة. ليست إرادة الله، بل الحركة اللانهائية ووزن الصدفة".

هزّ أبو فيكتور رأسه، وقال: "هل هذا كلّ شيء؟"

"لكنك تسيء فهمي. فهذا ليس بالأمر اليسير".

كان فيكتور متوجهاً إلى مكان عمله في وسط المدينة. كان ذلك في الصباح الباكر. كان هناك رجل غريب يثير الإزعاج، لا بد أنه كان مصاباً بانهيار عصبي. كان يحمل بيده سكيناً يلوّح بها. قالت الشرطة إن الرجل يثير الجلبة والفوضى. فيكتور القادم من الجهة المقابلة سمع ما يحدث. هل تعمّد الدخول إلى الزقاق؟ كان يتكلّم ثلاث لغات، وربما كان يظن أنه يستطيع أن يتكلّم أيّ لغة يريد. كان قد تخرّج في كلية الهندسة وينوي الحصول على رخصة عمل كمهندس. كان يعرف أشياء كثيرة عن انهيار المدن حيث تتهاوى الأشياء، تنهار بسبب بناء غير جيد أو بواسطة القنابل أو الكراهية. ومثل أبيه، دأب فيكتور على الاستيقاظ مبكراً، في الساعة الخامسة صباحاً بأبعد تقدير. كان فيكتور قد فتح عينيه في السرير في الشقّة التي يقيم فيها مع مي—يونغ. كان شديد الدقة فيما يتعلق بالوقت، كما لو كان موجوداً في داخله. ركب دراجته متوجهاً إلى مكان عمله عند الساعة السادسة والنصف تماماً. ظهر هو ودراجته في ذلك المكان. هل أثار وجوده أحداً وأجفله؟ عندما أطلقت الشرطة النار على الرجل الذي يحمل السكين وأردته قتيلا، أطلقت النار أيضاً على فيكتور عرضاً. ارتدّت الطلقة من جدار وأصابت فيكتور في صدره. حاولت الشرطة إنقاذه. لم يقل أحد لأبي فيكتور عمّا إذا كان ابنه قد قال شيئاً وهو ملقى على أرض الشارع. كان فيكتور يتنفس في سيارة الإسعاف. لكن لم يصل هو ولا نادية ولا مي—يونغ إلى المستشفى في الوقت المناسب. في تلك اللحظة لفظ ابنه أنفاسه الأخيرة. كان أبو فيكتور مستيقظاً كالعادة. كان جالساً في كرسيه، ينظر إلى الضوء المتغير على الأسطح. ثم سلمت الشرطة أبي فيكتور ملابس ابنه وخوذة دراجته ودراجته. وتبين أن

السكين التي كان يلوّح بها الرجل المتشرّد مجرد موسى صغيرة. أذيع عن نبأ إطلاق النار في نشرة الأخبار. كان هناك شجب. اعتذرت الشرطة، وأطلق التحقيق على ما حدث مأساة. ثم انتهى كل شيء. لقد ذهب كلّ شيء. لقد حدث كلّ ذلك قبل ثلاث سنوات، في الساعة ٦:٤٠ صباحاً.

تساءل أبو فيكتور كيف أنني لا أزال أب أحد؟ أليس من الأفضل لو أصبحت بلا اسم؟ أبو. أبو.

قطع قالب الحلوى، من الطبقة السفلية، وقدم قطعة أخرى للكولونيل الذي قال: "إنه طري جداً من الداخل".

"لقد كسرت كلّ العظام للتو".

ضحك الكولونيل لكنه بدا مشمئزاً.

إذاً هذا صحيح، قال أبو فيكتور لنفسه. نكتة هي السكين. نكتة قد تسيل الدم.

قبل طوني القطعة المقدمة له. في أرجاء الشقّة، كان طوني يرى أشياء تذكّره بنادية. صور لنادية وفيكتور، فيكتور ونادية. نادية ومي – يونغ، فيكتور ومي – يونغ. كانت نادية قد لفت قالب حلوى الزفاف بقطعة من البلاستيك ووضعته في المجمّدة. لماذا فعلت ذلك؟ ماذا ستفعل عندما تعود إلى البيت وتجد أنه لم يعد هناك؟ لم ير نادية منذ فترة طويلة. إنها امرأة طيبة ومستقيمة. قد يكون أبو فيكتور قد فقد ابنه، لكن لا يزال عنده بيت وشخص يحبّه. ألا يعني ذلك شيئاً؟

"قالب الحلوى مصنوع في مخبز يوكي وهانك"، قال أبو فيكتور وقد ثمل قليلاً، "يجب أن نرسل لهم رسالة شكر. يجب أن نخبرهم أن قالب الحلوى يحافظ على جودته لمدة طويلة".

إن لعكاز جورج خفّة كفّ قطّة على ركبته. ظنّ أن قالب الحلوى يتألف من عشر طبقات وتتوجه ورود وردية اللون. كان قد رأى قالب حلوى كهذا عندما كان صبياً، في عرس في حاريصا، القرية الجبلية التي تقع في المنطقة التي ولدت فيها أمّه.

قال الكولونيل: "أتذكر تلك الليلة في قبرص عندما التقينا بالأميرات..."

"لا أتذكّر شيئاً منيوكاً"، قال طوني.

ضحكوا..

طوني مرة أخرى: "كنت أحبّ شكل قوالب حلوى الزفاف منذ أن كنت طفلاً".

جورج صحنه ليحصل على قطعة أخرى للمرة الثالثة، وقال: "طوني، ما طعم الشكل؟ هل تعرف النكتة عندما ذهب أبو العبد لحضور عرس في جونيه..."

ابني يرتدي بدلة. ابني يرتدي بدلة. أبي يرتدي بدلة. الأب والابن، فيكتور وفيكتور. "إني حقاً لا أعرف أياً منهما".

طوني: "هل سكرت يا أبو فيكتور؟"

"مستعد لدفع مبلغ كبير حتى أسكر".

"هل يتناولون هذا النوع من الحلوى في اليابان؟" سأل الكولونيل.

أراد أبو فيكتور أن يضحك ويضحك.

"كلّ يوم".

كان قالب الحلوى لذيذاً جداً. وجد الكولونيل نفسه يعدّد الأشياء التي التقطوها ذات يوم من الشوارع. كلّ الحلويات التي تناولها هو وجوزيف وطوني وجورج بعد أن كانوا يقايضونها بأغلفة الطلقات، وعلب السجائر، والدحل، وأيّ شيء آخر، مع عصابات أخرى من الأخوة في الحيّ. تذكّر جميع الفتيان الذين كانوا يكبرونهم سنّاً يتسكعون مع فتيات جميلات يشبكون أذرعهم بأذرعهن. فتيات يتغيرن باستمرار، وتتغير ثيابهن وأحذيتهن باستمرار. بالطبع، لم يكن يغيّرن ثيابهن حقاً، لأن البضائع كانت شحيحة... لكن شوارع بيروت كانت تضجّ بالألوان المختلفة، ومفعمة بالحياة، وتزداد فيها الحياة مع دورة كل ساعة. دامت الحرب طويلاً، وفي النهاية غادروا جميعاً لبنان. كان الكولونيل نفسه أول من غادر. كان قد أغرم بفتاة فرنسية، وتبعها. قال الكولونيل لوالديه إنه يريد أن يدرس الفلسفة، وبسعادة سددا تكاليف دراسته. وفي فرنسا، أُغرم برجل لبناني لم يعش في فترة الحرب. أصبحا يعيشان الآن في بيت واحد في هامستد، وهي منطقة في مونتريال يعيش فيها الأثرياء وفيها إدارة أمن خاصة. لكنه لم يستطع أن يتذكّر ترتيب مغادرة الآخرين. هل كان أبو فيكتور في ١٩٨٤، ثمّ جورج في عام ١٩٨٦؟ هل ظل طوني حقاً حتى عام ١٩٩٠؟ لم يتذكّر ذلك. كانت بيروت مكان اللا

شيء. رفض أن يعود. لم يعد الكولونيل ذلك الطفل، ذلك الصبي الذي يمكن أن ترضيه الحلويات، الذي يراقب العالم وهو يمر. لاحظ الفيلسوف ستراتو أن الماء الذي يتدفّق من الصنبور ينفصل إلى قطرات منفصلة، وتخيّل ستراتو أن كلّ شيء في هذا الكون ينتج عن الوزن والحركة. خيّل لستراتو العجوز أن باستطاعته أن يحرّر الله نفسه، وأن يجعل الأمور بحيث لا يعود الله مسؤولاً عن الخلق: إن كلّ ما تحتاج إليه الحياة حتى تستمر هو الوزن، الحركة.

بعد أن تحرر من فكرة الله، اعتقد ستراتو أننا سنتحرر أخيراً من الخوف.

تعرّف الكولونيل على أفكار ستراتو عندما هرب من بيروت إلى باريس، لكنه منذ البداية كان يحمل بذرة الشكّ. لم يكن الكولونيل يخشى الله. لم يسهم الله في أي شيء في أيامنا هذه، بل يعتقد الناس أنهم هم المسؤولون عن كلّ الخلق. انتفخ المجتمع بالأنا. عندما يفكّر بالرجال، يكاد الكولونيل يشعر برعب يجعله عاجزاً عن فعل أي شيء. طوال فترة حياته، لم تمر دقيقة واحدة لم تنطلق فيها حرب. لذلك، فإن السلام هو الوهم الكبير، وأولئك الذين يعيشون في سلام يعيشون في حلم على وشك أن يتلاشى. كان الكولونيل مستيقظاً في بيروت، لكنّه غطّ في النوم في باريس. إنه لا يزال نائماً. نام وقد اختار النوم بدلاً من حزن الاستيقاظ الفظيع.

بصوت منخفض، حكى جورج نكتة تقول إن أبو العبد اكان يدرس عن البيئة. كان جورج خبيراً في توقيت إلقاء نكت. انحنى الرجال الثلاثة الآخرون إلى الأمام كرجل واحد ليسمعوا النكتة. كانت النكتة بذيئة جداً. لم يكد الكولونيل يستطيع أن يتنفّس، كان يضحك بقوة. كان أنفه يسيل، والدموع تسيل من عينيه.

ثم قال طوني: "أظن أنني سأغادر مونتريال. عندما ينتهي قالب الحلوى هذا، سأذهب إلى البيت وأحزم حقائبي". إنه لم يعد إلى بيروت منذ عام ١٩٨٧. تناول وردة وردية اللون مصنوعة من السكّر ووجد أنها لا تزال مجمّدة في وسطها.

تناول جورج قطعة رابعة. في لغتهم الأمّ، يستخدم العمى كشتيمة. العمى. لكنّهم لم يعرفوا. لم يتمكن أصدقاؤه من رؤية كلّ هذه الألوان، وكلّ هذه الشمس. كلّ ما كانوا يرونه هو قالب الحلوى هذا. قال: "كويس. يا طوني. أرسل لنا برسالة من حين لآخر".

كان فيكتور يقود دراجته أسفل أفنيو دي بارك. كان الهدوء يسود العالم. كان يحاول أن لا يفكر بحفل الزفاف. كان يراقب تسلل ضوء سائل شاحب من أبراج وسط مدينة مونتريال. كانت دراجته تصفر وهي تجري أسفل التلّ. اجتاز مركز المدينة، رويال مونت، التي كانت حقاً رابية، بالمقارنة مع جبال لبنان. كان ينتصب تمثال ضخم. امرأة تقف متوازنة فوق كرة على قدم واحد، ذراعاها مرفوعتان، تطلب العدالة. لم يكن فيكتور يعرف ماذا يطلب. كان قلقاً على مي – يونغ التي كانت قلقة على جدتها في سيؤول. قررا الذهاب إلى كوريا، لترتيب الأمور. كان هذا ما يتمناه، أن يعتني بالأمور من أجلها. أن يرتب عالمهما، الجزء الصغير الذي يخصهما من هذه المدينة. ذات يوم، سيضع تصميماً لبناية شفّافة. كان يتخيّل ذلك. طار أسفل التلّ، كان النسيم يلامس جلده، وتخيّل أنه جسم يهبط إلى العالم.

أسقط جورج شوكته.

"ماذا في الأمر؟" سأل أبو فيكتور.

كاد صوت جورج يضيع وراء جلبة الضحك الصاخب الذي يطلقه الطلاب الشبان في الشرفة المقابلة. قال: "لا شيء. كنت أفكّر بدرج بنايتنا القديمة في بيروت. ظننت أنني رأيت شيئاً لم يكن موجوداً هناك". لاذ جورج بالصمت. كان لا يزال يراه، وزن وحركة، يسقط وراءهم. كان طير يقف فوق عمود كهربائي يزقزق زقزقة متناغمة، مثل ساعة تقيس الزمن، ثم توقّف.

سمع أبو فيكتور الباب الأمامي يُفتح. لعل نادية عادت إلى البيت. ستخرج إلى الشرفة. سترى طوني. ستراه. لماذا فعلت ذلك يا جوزيف؟ ألا تفهم؟ لقد خبأتها".

أراد أن يسألها، ماذا يمكن لأيّ إنسان أن يضع في داخل قالب الحلوى هذا؟ إن كان هذا كلّ ما يمنحنا إياه الله، الكون، الطبيعة، بوذا، لا أعرف من، فماذا يمكننا أن نضيفه؟ دعيني أتصرف وإلاّ كيف يمكنني أن أستمرّ؟ قولي لي يا نادية، أرجوك، كيف يمكنني أن أزيل حزنك. حزنك، حزننا، يقتلنا.

قولي لي، يا حبيبتي، يا حياتي. أتوسل إليك. أين هي العدالة؟ قولي لي.

بارتياب، رأى أبو فيكتور جورج، من دون مساعدة أحد، يأخذ قطعة خامسة من قالب الحلوى.

الرجل الجالس في الرواق

بقلم / مارغريت دوراس(*)

يمكن أن يكون الرجل جالسًا في ظل الرواق بمواجهة الباب المفتوح على الخارج. ينظر إلى امرأة ممدة على بضعة أمتار منه على طريق حجري، تحيطهما حديقة تنزل في منحدر وعر يطل على واد، تلال عريضة بلا أشجار مراع تلتف من حول شط. بعد ذلك، على بعد واسع، وحتى الأفق، ثمة مجال غامض، امتداد ضبابي دائمًا وقد يكون اتساع البحر.

المرأة كانت قد تجولت من فوق ذروة المنحدر المقابل للشط ومن ثم عادت إلى المكان الذي هي فيه الآن، متمددةً في مواجهة الرواق، تحت الشمس. لا يمكنها رؤية الرجل، وهي مُنفصلة عن الظلال الداخلية للدار بقوة نور الصيف.

لا نستطيع القول إذا ما كانت عيناها مغلقتين أو مفتوحتين نصفيًا، قد يقول المرء بأنها تستريح، ترتدي ثوبًا ناصعًا من الحرير الشفاف، مشقوقًا من

(*) مارغريت دوراس: شاعرة وكاتبة وكاتبة مسرحية ومخرجة فرنسية، أشتهرت في فرنسا والعالم الفرنكفوني بالتنوع الأدبي والمعاصرة، كما كانت كاتبة للقصص القصيرة وسيناريوهات الأفلام، تعتبر من جيل الروائيين المجددين، وأهم الأدباء الفرنسيين في النصف الثاني من القرن العشرين.

ولدت في ٤ أبريل ١٩١٤ في سايغون، حين كانت مستعمرة فرنسية وهي تسمى الآن مدينة هو شي منه في دولة الفيتنام. توفي والدها مبكراً وبقيت وهي ووالدتها وأخيها وأختها. ارتبطت بعلاقة بشاب صيني ترك أثراً في كتاباتها، وكذلك السنين السبع العشر التي عاشتها في شرق آسيا مع الظروف الصعبة، وسوء المعاملة من الأم والأخ كل ذلك ترك آثراً في كتاباتها اللاحقة.

المقدمة، لحد يجعله مرئيًا. تحت الحرير كان جسدها عاريًا، ربما كان ثوبها من البياض الغابر العتيق.

هكذا يمكن أن تكون قد فعلت أحيانًا. وكان بمقدورها، في أحيان أخرى، فعله بطريقة مغايرة تماماً، على وجه مخالف، ذلك ما ألمحه منها.

يمكن أنها لم تقل أي شيء، وقد لا تكون نظرت إلى أي شيء. في مقابل الرجل الجالس في الرواق المعتم، كانت محبوسة تحت جفنيها. في نفسها ترى الظهور المُشوش لنور السماء. تعرف بأنه ينظر نحوها، وبأنه يرى كل شيء. تعرفه وعينيها مغمضتين كما أعرفه أنا، أنا الذي ينظر، هذا ما هو مؤكد.

أرى ساقيها وقد تركتهما ينطلقان حتى ذلك الوقت مثنيتين نصفيا بإهمال واضح، أرها تضمهما، تجعلهما يلتقيان أكثر فأكثر ضمن حركة واعية، مؤلمة. تشدهما بقوة تجعل جسمها يتشوه ويفقد شيئًا فشيئًا حجمه الاعتيادي. ثم أرى الجهد الذي تبذله يتوقف فجأة، وبتوقفه، تتوقف كل حركة، وهكذا بغتة يثبت الجسم في صورة محددة. يسقط رأسها ثانية على ذراعها، يثبت في وضعية النعاس تلك. يصمت الرجل الذي هو قبالتها.

من أمامهما الروابي الساكنة المؤدية للشط. تظهر سحب، تتقدم معيةً، تتابع بانتظام. ترحل باتجاه شرم الشط نحو الاتساع الذي لا نهاية له. ظلالها المعتمة خفيفة، فوق المراعي، فوق الساحل. لا تصدر عن سطح الدار أية ضوضاء.

يمكن أن تكون قد شرعت بالتحرك. وربما تكون بطيئة ومتمهلة بالقيام بذلك أمامه هو الذي ينظر إليها. زرقة العينين اللتين في الرواق المظلم تشرب

الضوء، تدور من حوله، تعرف هي ذلك. أراها الآن ترفع ساقيها وتبعدهما عن بقية جسدها. أنها تقوم بذلك بضمهما بنفس الطريقة التي ضمتهما فيها من قبل، في حركة واعية ومؤلمة، بقوة بحيث كان جسدها، على عكس اللحظة السابقة، ينقطع على طوله، يتشوه إلى حد القبح الممكن. ثانية تقف هكذا مفتوحةً أمامه. رأسها بعيد دائماً عن جسدها، ويسقط فوق ذراعها. حينها تظل في تلك الوضعية الفاحشة، الحيوانية. أصبحت قبيحة، صارت تلك القبيحة التي بإمكانها أن تكون عليها. أنها قبيحة. وها هي واقفة هنا، اليوم، داخل القبح.

أرى مضيق عضوها الجنسي بين الشفتين المتباعدتين وبأن كل جسدها يتمحور من حوله في حرقة تتضاعف. لا أرى وجهها. أرى الجمال يتموج، مُلتبساً، من جانبي الوجه لكني لا أستطيع جعلها تذوب فيه إلى حد تغدو جزء منه. لا أرى سوى مبيضه الحائد، المستوى الشديد النقاوة، المسترخي. أظن أن العينين المغلقتين بمقدورهما أن تكونا خضراوين. بيد أني أتوقف عند العينين. وحتى لو تمكنت من الاحتفاظ بهما طويلاً في عينيَّ لا تمنحاني كامل الوجه يبقى الوجه مجهولًا، أرى الجسد، أراه برمته عبر اقتراب عنيف. يرشح منه العرق، أنه ضمن وضوح شمسي ببياض مُخيف.

يمكن أن يكون الرجل قد أنتظر ثانية.

ثم تكون هي قد وصلت هناك. كانت قوة الشمس حداً جعلها تصرخ بغية تحملها، وها أنها تعض قفا ذراعها في ثوبها الممزق وتصرخ. تنادي على اسم. ويقدم أحدهم.

هي وأنا، نسمع أحدهم يمشي. كان قد تحرك. خرج من الرواق. أراه وأقول ذلك لها، أقول لها بأنه قادم. بأنه قد تحرك وخرج من الرواق. وبأن حركاته متناغمة في البداية، قصيرة، وكأنه لم يكن يعرف كيف يمشي ومن ثم تغدو مشيته بطيئة، بطيئة للغاية، ببطء مبالغ فيه. يأت، أنه هنا. أرى زرقة عينيه وهما تنظران أبعد منها، نحو الشط.

كان قد توقف أمامها، خلق ظلاً فوق شكلها. من تحت جفنيها، لابد وأنها قد لمحت تَجَهُّم النور، الشكل المرتفع لجسمه المنتصب من فوقها في الظل الذي أخذها. تُوقفْ الحرقة يجعل فمها الذي عض ثوبها ينمطّ. أنه هناك. عيناها مغمضتان دائمًا، تهد الثوب، تنزل ذراعاها على طول جسمها بانسيابية ردفيها، تُحور من تباعد ساقيها، تحرفهما باتجاهه لكي يرى منها ما هو أكثر، حتى يرى منها ما هو أكثر من عضوها المُنفرج بأكبر ما يمكن له أن يكون فيه مرئيًا، لكي يرى، في ذات الوقت، شيئًا آخر أيضًا، يطلع منها ثانية كفم يتقيأ، شيء حشوي.

ينتظر الرجل. تعود هي ووجهها بعينيه المغلقتين باتجاه الظل وتنتظر بدورها. حينئذ تفعل، بدورها، ذات الشيء. أولاً على مستوى الفم. يَنسَحقُ القذف من فوق شفتيها، على أسنانها الظاهرة، يُلطخ عينيها، شعرها ومن ثم ينزل على طول جسمها، يفيض على ثدييها، القذف الذي يأتي سلفاً ببطء. حينما يبلغ عضوها الجنسي يكون قد تجدّد بقوة، يتلاشى بسخونته، يندمج بشيطانها، زبد، ثم ينضب. تنفتح عينا المرأة نصفياً دون أن تنظر ويعاودان الانغلاق. عينان خضراوان.

أتكلم معها وأقول لها ماذا فعل الرجل. أقول لها أيضاً ما الذي أصبحتِ عليه. وأن ترى ما أشتهيه.

يلف الرجل، بقدمه، شكله من فوق الطريق الحجري. الوجه قبالة الأرض. ينتظر الرجل ومن ثم يبدأ من جديد، يقوم بتدوير جسمه من هنا وهناك، بفظاظة يسيطر عليها بالكاد. يتوقف بضعة لحظات لكي يسترجع ثانية هدوئه، بعدها يشرع مرة أخرى. يُبعد جسدها لكي يقربه فيما بعد منه برقة. يطيعه ذلك الجسد، المائع، يمنح نفسه لتلك المعالجات وكأنه كان مغشياً عليه، من دون شعوره فيها، يمكن القول بأنه كان يدور من فوق الحجارة ويظل هناك من حيث قدم في الوضعية التي يأخذها عند توقف الحركة.

فجأة كان ذلك قد توقف.

الشكل، هنا، عاري، بعيد عنه. ينظر له الرجل وينضم إليه. حينئذ يضع الرجل، وكأنه سيواصل تدويره هنا وهناك، قدمه من فوقه ويثبت فجأة.

كان بمقدوره وضع قدمه العارية على المنطقة التي يتخذها الشكل صدفةً، باتجاه القلب، وبدفعة واحدة كف عن التحرك.

كان بإمكانه رفع رأسه ثانية والنظر نحو الشط. الشمس ثابتة وقوية. ينظرُ الرجل دون أن يرى بانتباه شديد ما يعرض نفسه أمام عينيه. يقول:

– أحبكِ. أنتِ.

كان يمكن للقدم الاستناد على ذلك الجسد.

تطول الديمومة، فهي تتمتع بوحدة ذلك الاتساع اللانهائي. كان بمقدور

الرجل عدم الشعور بالخوف وهو ينظر دائماً من دون أن يرى ما يعرض نفسه أمام عينيه، بريق النور، الهواء المرتجف.

إنها تحته، مصوبة عينيها بكل ما فيها من قوة، كما يُقال، نحو الحدث الجاري. ساكنة هي، بفمها الذي عض ذراعها المتوقفة عند حرير ثوبها، تلمح تقدمه، تلمح ضغط القدم من فوق قلبها. كان بمقدور عينيها الانغلاق من جديد على اللون الأخضر المرئي نصفياً. تحت القدم العارية، هناك طين مستنقع، اضطراب مياه، صماء، بعيدة، متواصلة. تفكك الشكل، أصبح مائعاً، وكأنه قد كُسرَ، بسكون مرعب. تدوس القدم ثانية. تغطس، تبلغ قفص العظم، تدوس ثانية. صرخت. سمعَ هو صرخةً. كان لديه وقتاً لكي يسمع بأن الصرخة لم تتوقف، وليسمع أيضاً ضعفه. فيما كان يظن بأنه ما زال لديه وقتاً للاختيار، تتردد القدم، وينحل الجسد بثقل، منفصلاً عن القلب تحت اندفاع الصرخة. كان يمكنه السقوط على كرسي الرواق الكئيب.

كان يمكن لساقيّ المرأة الانفصال ومن ثم سيسقطان، مُنهكين. تستدير من حول نفسها، تصرخ ثانية، بقفزات طويلة وبطيئة، تتصارع. شكواها تصرخ وتبكي، أنها ما تزال تنادي على الخلاص، أن يأتي أحدهم، ومن ثم فجأة، تتوقف.

كان بمستطاع الشمس البقاء من فوقها وحتى حزامها. أرى شكلها داخل الرواق، فهي في الظل، محرومة من الألوان تقريباً. سقط رأسها على ذراع الكرسي. أراه منهكاً من الحب والشهوة، شحوبه خارق وقلبه ينبض

على سطح جسدها بكامله. أراه مُرتجفاً. أرى ما لا ينظر هو إليه، لكن يمكن تخمينه مع ذلك ورؤيته في مواجهة الرواق، تلك المرتفعات الجميلة للغاية أمام الشط وذلك الاتساع المتموج دائماً والغاطس بالضباب الذي يمكن أن يكون ضباب البحر. فعري السهل، واتجاه المطر لا بد لهما أن يكونا عري واتجاه البحر. وذلك الحب العنيف. البحر هو ما لا أراه. أعرف بأنه هناك أبعد من منظور الرجل والمرأة.

قد يكون رآها وهي تصل نحوه، هي التي عادت ثانية عن طريق الحجر. وقد تكون بقيت للحظة مستندةً على إطار الباب قبل أن تنفذ في نداوة الرواق. ربما مدت نظرها باتجاهه. فكما كانت واقفة أمامه في اللحظة المنصرمة كان بمقدوره الوقوف أمامها وعينيه مغلقتين. يداه الساكنتان تستريحان من فوق ذراع الكرسي. ربما كان يرتدي من قبل وما زال يرتدي سروالاً أزرقاً ذو فتحة تخرج هي منها ثانية. نابضة كقلبها. شكل من العصور الأولية، لا يتميز عن الحجارة، عن الحز الأبدي، المزروع في الإنسان والذي يتصارع من حوله. من حوله حيث يجد نفسه على عتبة الدموع والصراخ. أسمع المرأة تكلم الرجل.

– احبكَ.

أسمعه يرد عليها بأنه يعرف:

– نعم.

أرى أن المرأة تتحرك وأنها ستتجاوز الخطوات الثلاث التي تفصلها عنه. أراها أيضاً تشرع بحركة هروب وتسقط على الكرسي. ومن ثم ما عدتُ أرى ما هو أبعد من الوقائع.

وصلتْ هي بالقرب منه، وانحنت بين ساقيه صار هو ينظر نحوها، هي وحدها، في الظل الذي صنعته بدورها بجسدها. بعناية وضعت ذلك الظل في عريه الكامل. خلعت ملابسها. وأخرجت منها الأجزاء العميقة. يبتعد هو قليلاً عنها، يضعها في النور.

أرى الرجل يخفض رأسه وينظر نحوها، كما ينظر في ذات الوقت في المرأة إلى مشهده الخاص. تقوم هي بنفس القفزات المتوافقة مع إيقاع قلبها. عبر رهافة البشرة التي تغطيها تنتشر شبكة الدم السوداء. مزدحمة هي بالمتعة، تكتظ بمتعة أكثر مما تستطيع على تحمله ولشدة التصاقها بنفسها يتردد المرء بمسها.

الرجل والمرأة ينظران نحوها سويةً. في ما لا يقومان بأية حركة باتجاهها ويتركانها ثانية. أبعد منهما أرى أيضاً بأن ذلك كان بلداً من دون أشجار، بلد شمالي. وبأنه لا بد وأن يكون البحر ممتداً وساخناً. أنه دفء بعيون قد فقدت ألوانها. لم تعد ثمة من سحب فوق المرتفعات، لكن هناك دائماً ذلك الضباب البعيد. أنه بلد يهرب من نفسه، ولا يدع المرء يراه ويعاود رؤيته، حركة لا تتوقف أبداً، ولا تعرف نهاية.

يمكن أن تكون قد تقدمت ببطء، وفتحت شفتيها وفجأة، تكون ضمت طرفها البعيد والناعم برمته. يمكن أن تكون أغلقت شفتيها من فوق الكف الذي يشهد على ولادتها. ويمكن لفمها أن يكون قد امتلأ به. كانت الرقة حداً جعل دموعها تملأ عينيها. أرى بأنه ليس ثمة ما يعادل تلك الرقة سوى المنع الشكلي الذي يُحَرمْ مسها. محرمة. لا يمكنها أيضاً أخذه إلا بملامستها

بحذر بلسانها الممتد من أسنانها. أرى هذا: بأن ما يمتلكه المرء عادة في عقله تملكه هي في فمها عبر ذلك الشيء الخشن والفظ. أنها تلتهمه في عقلها، وتتغذى منه، وتشبع منه في عقلها. وفيما الجريمة تكمن في فمها، ليس بمقدورها السماح لنفسها بغير مرافقتها، قيادتها نحو المتعة، والأسنان جاهزة. يداها تعينها على الوصول، على العودة ثانية. لكنها تبدو جاهلة بالعودة. يصرخ الرجل. وفيما يداه ماسكتان بشعر المرأة يحاول أجتثثها من مكانها لكنه كان قد فقد قوته، وهي لا تريد أن تخليه.

الرجل ينوح الرأس الذي يحمله الجسد، الغيور والمهجور. شكواه تصرخ لكي تعود، حتى ترجع إليه ثانيةً. تصرخ، هي المتوسلة، وترفض رغبته التي تريد لها الخير. فبالنسبة لها، بالنسبة للمرأة، ليس لذلك من أهمية. يهبط فمها نحو تلك الأنوثة الأخرى، تصل إلى هناك حيث حولت نفسها إلى امرأة تحت أرضية، ثم تعاود الصعود بصبر إلى حد تأخذ ثانية وتحتفظ في فمها على ما كانت قد تركته. تحتفظ فيه حد ابتلاعه في حركة مص متواصلة. لا تحاول بعد أي شيء من جديد. عيناه مغلقتان. وهو وحيد. بلا حراك، يصرخ.

هناك في الأعالي، تصبح الصرخة، الشكوى، أكثر حدةً؛ ففي البدء كانت وكأنها صرخة طفل، ثم بعد ذلك تعمقت، صارت أكثر ألماً، إلى حد ما عادت فيه المرأة تتحمل ذلك. تتخلى، تسحب نفسها ثانية، تضم ساقيها بقرب أكبر منها، تباعد بينهما تنظر وتتنفس الرائحة الرطبة والفاترة. تتمهل، يختفي وجهها في الشيء الذي يجهله هو، تتنفس طويلاً رائحة الهواء العفن.

أرى بأنه قد تركها تفعل وهو ينظر إليها من جديد. لكي يراها تقوم بما

تقوم به، ليمنح نفسه لرغبتها بالقدر الذي يستطيع عليه. ليعطي لهذه الجائعة الرجل الذي هو نفسه بالذات. في شعر المرأة ينبض الآن القلب بقفزات متواصلة.

يطلق بهدوء تأوه تعبر عن سعادته.

تمر السماء عبر زاوية الباب المثلثة المفتوحة. يتقدم بكل طوله، ببطء يماثل حركة الأرض. تُقاد السحب ذات الشكل الثابت باتجاه الفضاء الشاسع.

بفمها المفتوح، وعينيها المغلقتين، هي الآن في كهف الرجل، إنها قد انسحبت فيه، بعيدة عنه، وحيدة، في ظلام جسد الرجل. لم تعد تعرف ما تقوم به، ولا ما تقوله، فهي تعتقد دائماً بأنه ما زال ممكناً القيام بالشيء نفسه بطريقة أخرى. تُقَبلُ. هناك حيث ينتشر الهواء العفنُ من قبل، تلعقُ. تسمي الأشياء، تلعن، تصرخ بكلمات لنجدتها. ومن ثم تصمت من جديد، مُحتدمة مُستبسلةً بكل قواها إلى أن تدفعها يدا الرجل وتجعلاها تنقلب. يتحد هو بها. يتمدد لوقت طويل من فوقها، ينفذ فيها ثانية، ويظل هناك بلا حركة، فيما هي تبكي.

كانا قد تمتعا. وهما الآن منفصلان عن بعضهما. لوقت طويل، ظلا متمددين على الأرض، من دون أن يمس أحدهم الآخر. البلاطات طرية، مروية. ما زالت تبكي من حين إلى آخر، بدموع طفل.

يستدير ببطء نحوها، وبساقه يأخذها بالقرب منه. يظلان في تلك الوضعية. يقول لها أنه يرغب بالكف عن حبها. لا ترد عليه. يقول لها أنه سيقتلها في يوم ما.

لا يتولد أي شيء غير السكون وفوضى جسديهما الشاحبين وذلك الكلام الذي يقوله لها من جديد، وبأن لا نهاية لهذا.

كانا يرقدان في الرواق وكأنهما ينامان فيما يتهيأ شيء آخر أثناء صعود الرغبة البطيء. فبحركات محسوسة بالكاد كانا على وشك التقارب من بعضهما. بشرتهما، وعرق كل واحد منهما يمس عرق الآخر، فمُها هي، يعثر عليه هو ثانية. يبقيان هكذا، متماسان، في حالة انتظار. ثم تقول هي بأن لديها رغبة في أن يصفعها، على وجهها مثلما تقول، وتطلب منه أن يأتي، تقول له تعال. يفعل هو ذلك، يأتي، يجلس بالقرب منها وينظر إليها ثانية. تقول: لتضربني، بقوة، كما كان القلب يضرب قبل قليل. تقول بأنها تتمنى الموت. وها أن زاوية الباب المفتوحة يملأها جسد الرجل الجالس والذي سيضرب.

يقدم ضباب من ذلك الاتساع غير المحدود، لون بنفسجي التقاه هو من قبل على دروب مجال آخر، قرب شطوط أخرى، في رياح موسمية بعيدة للغاية وممطرة.

ترتفع يد الرجل، تنزل ثانية ويشرع بالصفع. في البدء بنعومة ثم بقسوة أكبر. تصفع اليد مطلع الشفاه وبقوة لا تني عن التعاظم، تصفع الأسنان. تقول هي نعم، ذلك ما رغبتُ أنا فيه. ترفع وجهها لكي تعرضه بصورة أكبر على الصفعات، تُرخي وجهها أكثر، تجعله على مقربة أكبر منه، وأكثر مادية.

سيجلسان، بعد عشر دقائق سوية، في توازن دقيق. يصفع هو بقوة أكبر فأكبر. تهبط يده، تضرب من فوق ثدييها، على جسمها. تقول هي

نعم، هذا ما كنتُ أنا راغبة فيه، نعم. تذرف عيناها الدموع. تضربُ اليد، تصفعُ، بدراية متعاظمة إلى حد يمكنها فيه بلوغ سرعة مكينة.

يُفرغ الوجه من كل تعبير، مرعوباً، وقد فقد مقاومته، مُرتخياً، يتحرك طواعية من حول العنق كشيء ميت.

أرى بأن الجسد يعرض نفسه تلقائياً للصفع، وبأنه أصبح مهجوراً، خارج أي ألم. يلعن الرجل ويصفع. ومن ثم فجأة الصرخات، والخوف.

بعد ذلك أرى بأن هؤلاء الناس قد غطسوا في الصمت.

أرى بأن اللون البنفسجي يقترب، وبأنه يصل إلى فتحة الشط، والسماء تتلبد وقد توقفت في مسارها نحو المجال الشاسع. أرى رجالاً آخرين ينظرون لنساء أخريات، ونساء غيرها الآن ميتات كن قد نظرن لذات الشيء يُفعل وتتلاشى الرياح الموسمية للصيف أمام شطوط تحيطها مستنقعات الرز المعتمة، في مواجهة فتحات واسعة وعميقة. أرى عاصفة صيفية تقدم من اللون البنفسجي.

أرى الرجل يبكي متمدداً فوق المرأة. لا أرى أي شيء منها سوى السكون. لا أعرف منْ هي، لا أدري أي شيء، ولا أعرف إذا ما كانت نائمة.

الغنيمة

بقلم/ نادين جوردماير(*)

في أحد أيام عصرنا الحالي، حدث زلزال قوي، ولكنه في هذه المرة كان أكبر ما تمّ تسجيله قوةً منذ اختراع مقياس ريختر الذي أتاح لنا قياس التحذيرات الغامضة. ولقد أدى هذا الزلزال إلى تغييرات واسعة النطاق، فهذه الهزات تتسبب غالبًا في إحداث فيضانات، بينما هذا الزلزال الضخم أحدث فعلاً عكسيًا، فقد تراجع المحيط. وانزاح الستار عن الطبقة الأكثر غموضًا من عالمنا وهو قاع البحر بما يحتويه من حطام السفن الغارقة وواجهات المنازل وأوعية دورات المياه وشاشات التلفاز وعربات البريد وأجسام طائرات وتماثيل من الرخام ومدافع كلاشينكوف والأجزاء المعدنية من حافلات السائحين وغسالات أطباق أتوماتيكية وحاسب آلي وعملات تحولت إلى أحجار.

(*) نادين جوردماير: كاتبة هولندية بيضاء ولدت عام ١٩٢٣، وخلعت جلباب وطنها المستعمر لتقف مساندة وداعمة لشعب جنوب افريقيا في طريقه نحو الاستقلال.
كان نظام الأبارتهايد نظامًا لا يجاريه نظام في التمييز العرقي، حيث يعيش الرجل الأسود أسوأ حالات المعيشة حيث يظل دائما خادما للرجل الأبيض.. في ظل تلك الظروف كتبت نادين عكس التيار. رفضت سياسات قومها، وانتقدت توجهات وطنها ووقفت إلى جوار الشعب المضطهد برواياتها وقصصها التي استحقت عنها جائزة نوبل عام ١٩٩١، ومن قبلها جوائز البوكر.
ومن أبرز أعمالها روايات "صاحب الحيازة" و"عالم الغرباء" و"لعبة الطبيعة" و"شعب يوليو"، و"ابنة بيرجر". توفيت في مدينة جوهانسبرج في ١٣ يوليو ٢٠١٤ عن تسعين عامًا.

أما النظرات المذهولة فقد وضحت بين كل هذه الأشياء، وكانت للسكان الذين هربوا من منازلهم المهدمة إلى التلال. وعلى الرغم من الصرخات والانهيارات الأرضية التي تسببت في رعبهم، فقد كان يسيطر على المكان الصمت العاري. وتلألأ زبد البحر فوق كل هذه الأشياء، ومن المفترض أن الوقت لا ولم يتواجد هناك على الإطلاق، حيث إن مادية الماضي والحاضر لم يكن لها ترتيب زمني، حيث إن الجميع كانوا شخصًا واحدًا وكانوا لا شيء. وقد هُرع الجميع لأخذ كل ما يستطيعون وضع أيديهم عليه، خاصة الأشياء التي كانت تعتبر ذات قيمة في وقت ما، ولكن ما هذا؟ حسنًا، شخصًا ما يعلم، هذا لابد أنه يخص أحد الأغنياء، ولكنه ملكي الآن. وإذا لم تقم بسلب كل شيء هناك، فشخص آخر سيقوم بذلك، وزلت الأقدام وانزلقت على العشب البحري وغرقت داخل الرمال المشبعة بالماء وفغرت نباتات البحر فمها في دهشة نتيجة لأفعالهم، ولم يلحظ أحد عدم وجود أي أسماك، فقد أزيلت الكائنات الحية لهذه الأرض التي تمّ اكتشافها مع المياه. أما الفرصة العادية التي أتيحت للمواطنين لنهب المتاجر أثناء الانتفاضات السياسية لا يمكن مقارنتها بما حدث.

ومنحت البهجة المتسمة بالعربدة كل من الرجال والسيدات وأطفالهم القوة للتخلص من كل شيء لم يرغبوا به داخل الوحل والرمال، بالإضافة إلى الإسراع من مشيتهم المذهلة أثناء تجولهم، وهذا كان يمثل أكثر من مجرد ربح نتيجة لظروف طارئة، حيث كان سلبًا لقوة الطبيعة التي كانوا يهربون أمامها عاجزين. خذ، خذ؛ واستطاعوا تناسي حطام منازلهم وفقد ممتلكاتهم هناك أثناء عمليات السلب. وقد خرقت صيحاتهم لأحدهم الآخر الصمت

الذي كان يلف المكان وأثناء هذه الصيحات التي كانت تشبه صيحات طائر النورس الغائب، لم يلتفتوا إلى قرب صوت بعيد يماثل الرياح الشديدة. وعندئذ عاد البحر مرة أخرى وابتلعهم لينضموا إلى كنوزه.

الفهرس